اَلْمَزْمُورُ الْحَادِي وَالثَّلاَثُونَ

لإِمَامِ الْمُغَنِّينَ. مَزْمُورٌ لِدَاوُدَ

1عَلَيْكَ يَا رَبُّ تَوَكَّلْتُ، لاَ تَدَعْنِي أَخْزَى مَدَى الدَّهْرِ. بِعَدْلِكَ نَجِّنِي. 2أَمِلْ إِلَيَّ أُذْنَكَ. سَرِيعاً أَنْقِذْنِي. كُنْ
لِي صَخْرَةَ حِصْنٍ، بَيْتَ مَلْجَأٍ لِتَخْلِيصِي، 3لأَنَّ صَخْرَتِي وَمَعْقِلِي أَنْتَ. مِنْ أَجْلِ اسْمِكَ تَهْدِينِي وَتَقُودُنِي.
4أَخْرِجْنِي مِنَ الشَّبَكَةِ الَّتِي خَبَّأُوهَا لِي، لأَنَّكَ أَنْتَ حِصْنِي. 5فِي يَدِكَ أَسْتَوْدِعُ رُوحِي. فَدَيْتَنِي يَا رَبُّ إِلهَ الْحَقِّ.
6أَبْغَضْتُ الَّذِينَ يُرَاعُونَ أَبَاطِيلَ كَاذِبَةً. أَمَّا أَنَا فَعَلَى الرَّبِّ تَوَكَّلْتُ. 7أَبْتَهِجُ وَأَفْرَحُ بِرَحْمَتِكَ، لأَنَّكَ نَظَرْتَ إِلَى
مَذَلَّتِي، وَعَرَفْتَ فِي الشَّدَائِدِ نَفْسِي، 8وَلَمْ تَحْبِسْنِي فِي يَدِ الْعَدُوِّ، بَلْ أَقَمْتَ فِي الرُّحْبِ رِجْلِي.

9اِرْحَمْنِي يَا رَبُّ لأَنِّي فِي ضِيقٍ. خَسِفَتْ مِنَ الْغَمِّ عَيْنِي، نَفْسِي وَبَطْنِي، 10لأَنَّ حَيَاتِي قَدْ فَنِيَتْ بِالْحُزْنِ
وَسِنِينِي بِالتَّنَهُّدِ. ضَعُفَتْ بِشَقَاوَتِي قُوَّتِي، وَبَلِيَتْ عِظَامِي. 11عِنْدَ كُلِّ أَعْدَائِي صِرْتُ عَاراً، وَعِنْدَ جِيرَانِي بِالْكُلِّيَّةِ،
وَرُعْباً لِمَعَارِفِي. الَّذِينَ رَأَوْنِي خَارِجاً هَرَبُوا عَنِّي. 12نُسِيتُ مِنَ الْقَلْبِ مِثْلَ الْمَيْتِ، صِرْتُ مِثْلَ إِنَاءٍ مُتْلَفٍ،
13لأَنِّي سَمِعْتُ مَذَمَّةً مِنْ كَثِيرِينَ. الْخَوْفُ مُسْتَدِيرٌ بِي بِمُؤَامَرَتِهِمْ مَعاً عَلَيَّ. تَفَكَّرُوا فِي أَخْذِ نَفْسِي.

14أَمَّا أَنَا فَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ يَا رَبُّ. قُلْتُ: «إِلهِي أَنْتَ». 15فِي يَدِكَ آجَالِي. نَجِّنِي مِنْ يَدِ أَعْدَائِي، وَمِنَ الَّذِينَ
يَطْرُدُونَنِي. 16أَضِئْ بِوَجْهِكَ عَلَى عَبْدِكَ. خَلِّصْنِي بِرَحْمَتِكَ. 17يَا رَبُّ، لاَ تَدَعْنِي أَخْزَى لأَنِّي دَعَوْتُكَ. لِيَخْزَ
الأَشْرَارُ. لِيَسْكُتُوا فِي الْهَاوِيَةِ. 18لِتُبْكَمْ شِفَاهُ الْكَذِبِ، الْمُتَكَلِّمَةُ عَلَى الصِّدِّيقِ بِوَقَاحَةٍ، بِكِبْرِيَاءٍ وَاسْتِهَانَةٍ.

19مَا أَعْظَمَ جُودَكَ الَّذِي ذَخَرْتَهُ لِخَائِفِيكَ، وَفَعَلْتَهُ لِلْمُتَّكِلِينَ عَلَيْكَ، تُجَاهَ بَنِي الْبَشَرِ. 20تَسْتُرُهُمْ بِسِتْرِ
وَجْهِكَ مِنْ مَكَايِدِ النَّاسِ. تُخْفِيهِمْ فِي مَظَلَّةٍ مِنْ مُخَاصَمَةِ الأَلْسُنِ. 21مُبَارَكٌ الرَّبُّ لأَنَّهُ قَدْ جَعَلَ عَجَباً رَحْمَتَهُ لِي،
فِي مَدِينَةٍ مُحَصَّنَةٍ. 22وَأَنَا قُلْتُ فِي حَيْرَتِي: «إِنِّي قَدِ انْقَطَعْتُ مِنْ قُدَّامِ عَيْنَيْكَ». وَلكِنَّكَ سَمِعْتَ صَوْتَ تَضَرُّعِي
إِذْ صَرَخْتُ إِلَيْكَ.

23أَحِبُّوا الرَّبَّ يَا جَمِيعَ أَتْقِيَائِهِ. الرَّبُّ حَافِظُ الأَمَانَةِ وَمُجَازٍ بِكَثْرَةٍ الْعَامِلَ بِالْكِبْرِيَاءِ. 24لِتَتَشَدَّدْ وَلْتَتَشَجَّعْ
قُلُوبُكُمْ يَا جَمِيعَ الْمُنْتَظِرِينَ الرَّبَّ.

جعل رحمته عجَباً!

مناسبة كتابة هذا المزمور حادثة مرت بداود عندما كان هارباً أمام شاول، من مكان إلى مكان حتى وصل إلى برية معون. وتابَعَه شاول حتى استُدعي ليرجع بسرعة ليدافع عن بلاده، لأن الفلسطينيين هاجموهم. فرجع شاول ونجا داود. وسُمِّي المكان «صخرة الزلقات» لأن شاول انزلق ورجع عن داود، لا بسبب ذكاء داود أو حيلته، لكن لأن الرب هو الذي سمح بذلك (1صم 23).

كان المرنم قد أعيا عقلاً وجسداً، مضطهَداً، مشوَّه السُّمعة، فألقى بنفسه على الله يرتل هذا المزمور، صلاة يرفعها، فرفعته إلى فوق بعيداً عن المشاكل التي كانت تهاجمه، وقد امتلأ قلبه بالإيمان بالإله الحي وبالرجاء فيه.

ولا بد أن هذا المزمور كان في فكر إرميا، النبي الباكي، فاقتبس فكرة «إناء مُتلَف» (آية 12) في حديثه عن إناء الفخاري (إر 18: 4 و22: 28) واقتبس منه القول «الخوف مستديرٌ بي» (آية 13) في قوله: «خوفٌ من كل جهة» (إر 6: 25) «الخوف من كل جانب» (إر 20: 10 و49: 29). كما اقتبس يونان الآية 6 من المزمور في صلاته في يون 2: 8، 9. واقتبس شيخٌ تقي الآيات الثلاث الأولى من مزمورنا في مطلع مز 71، ولعلها كانت ترنيمته المفضّلة في بداية حياته.

أما المسيح فقد اقتبس على الصليب جزءاً من آية 5 «في يدك استودع روحي» بعد أن أضاف إليها «يا أبتاه» لأنها كلمات الثقة بالله، ولو أنه لم يقتبس كل الآية، لأن نصفها الثاني يقول: «فديتني يا رب إله الحق» لأن المسيح لم يكن محتاجاً لفداء، فهو نفسه الفادي.

وقد صارت هذه الكلمات مصدر تشجيع للمؤمنين عبر الأجيال. تلاها القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا وهو يستشهد محترقاً. كما تلاها القديس إيرونيموس (المعروف باسم جيروم) عند موته، وهو الذي ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية، الترجمة المعروفة بالفولجاتا. وتلاها جون هس وهو يُحرق لأنه ترجم الكتاب المقدس إلى لغة الشعب. وكرر هذه العبارة عددٌ لا يُحصى من المؤمنين، في أوقات وفاتهم أو ضيق نفوسهم، فهي توجِّه نظرنا إلى الرب لنستودع أرواحنا بين يديه.

قال مارتن لوثر: «مبارك الشخص الذي يموت مع المسيح كمؤمن لأنه آمن. ومبارك الشخص الذي يموت من أجل المسيح كشهيد. ومبارك الشخص الذي يموت مع المسيح وهو يقول: في يدك أستودع روحي». هذه كلمات تكريسية نسلم نفوسنا فيها للرب تسليماً كاملاً، ونحن نرى أن العالم هنا ليس مكان إقامتنا، فقد قال المسيح: «أنا أمضي لأعدَّ لكم مكاناً. وإن مضيتُ وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إليَّ، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً.. أنا هو الطريق والحق والحياة. ليس أحدٌ يأتي إلى الآب إلا بي» (يو 14: 2-6).

هذا مزمور مبارك تتلألأ وسطه هذه الجوهرة: «في يدك أستودع روحي» فترفع نظرنا إلى الرب، مهما كنا متعَبين أو مطارَدين.

في هذا المزمور نجد:

أولاً - الصلاة ملجأ المتألم (آيات 1-8)

ثانياً - قصة المتألم (آيات 9-18)

ثالثاً - صلاح الله (آيات 19-22)

رابعاً - نصيحتان للأتقياء (آيتا 23، 24)

أولاً - الصلاة ملجأ المتألم
(آيات 1-8)

يبدأ المرنم هذا المزمور بالصلاة، وبعد ذلك يرفع الشكوى. ربما لو كنّا مكانه لبدأنا بالشكوى وإعلان مشاعرنا بالإحساس بالألم والتذمر! ومن صاحب هذا المزمور نتعلم كيف نصلي في أوقاتنا الصعبة.

1 - خمسة أسباب دفعت المرنم إلى الصلاة:

(أ) ثقة المرنم: «عليك يا رب توكلت» (آية 1أ). ثقة المرنم في الرب جعلته يتوكل عليه، فيضع نفسه تحت الحماية الإلهية، ويصلي صلاة الواثق في الرب لأنه اختبره فوجده الوحيد الذي يستحق الثقة. لم يُخجِله أبداً ولا أخزاه «حسب انتظاري ورجائي أني لا أُخزَى في شيء» (في 1: 20). لذلك يكرر إعلان ثقته: «أما أنا فعلى الرب توكلت» (آية 6ب) لأنه يدرك أن الله أب محب ينحني على طفله المتألم ويرفعه فوق الألم. وهو يعلن ثقته بقوله: «لأن صخرتي ومعقلي أنت» (آية 3أ). والمعقل هو الجبل المرتفع، وهو الملجأ، وهو المكان الذي يلجأ إليه للحماية، ثم يقول: «لأنك أنت حصني» (آية 4ب) «كنتُ فتى وقد شِخْت ولم أر صديقاً تُخلِّي عنه» (مز 37: 25).

(ب) اسم الله: «من أجل اسمك تهديني وتقودني» (آية 3ب). غضب الرب على بني إسرائيل أثناء سفرهم في سيناء، لأنهم عبدوا عجلاً ذهبياً قالوا إنه أخرجهم من عبودية فرعون. فقال الرب لموسى إنه سيبيد الشعب المشرك كله ويبدأ بموسى شعباً جديداً. فقال موسى للرب: وماذا يقول المصريون عنك؟.. سيقولون إنك أخرجتهم من مصر بخبث، وقتلتهم في الصحراء!.. اذكُر عبيدك الذين حلفتَ لهم بنفسك، وقلتَ لهم إنك ستعطيهم أرض كنعان. ونجح موسى في شفاعته (خر 32: 7–14). كان الله يمتحن أمانة موسى لرسالته: هل كان سيسعد بأن يصبح اسم الشعب «بني موسى» بدلاً من «بني إسرائيل»؟ وكان موسى يعرف «اسم الله» الذي يهدي ويقود لأنه كان قريباً من ربه، فحقق الله له طلبته.

(ج) ماضي الله مع المرنم: «فديتني يا رب إله الحق» (آية 5ب). إله الحق صنع لداود فداءً ودفع الفدية لينقذه. والفدية العظمى والكبرى هي فداء المسيح لنا، فهو«الذبح العظيم» لأنه جاء من السماء، وصار خطية لأجلنا لنصير نحن بر الله فيه، فأخذ مكاننا وصار بديلاً عنا.

(د) تقوى المرنم: «أبغضتُ الذين يراعون أباطيل كاذبة» (آية 6أ). والأباطيل الكاذبة هي الأوثان والأصنام وهي العرافة والتنجيم.

(هـ) فرح المرنم: «أبتهج وأفرح برحمتك» (آية 7أ). في الماضي فرح برحمة الرب التي لم تعاقبه العقاب الذي يستحقه، وهو واثق أن هذه الرحمة مستمرة معه، لأن إلى الأبد رحمته (مز 138: 3).

2 - المرنم يطلب ست طلبات:

(أ) ألا يخزيه: «لا تدعني أخزى مدى الدهر» (آية 1ب). كان يعلم أن شاول يطارده متجنِّياً عليه. ويذكر أنه عندما كان ولداً يرعى الأغنام جاء صموئيل النبي ومسحه ملكاً، فصار منذ ذلك الوقت مسيح الرب. ولم يشأ أن يغتصب الوظيفة أو يخطفها، بل انتظر حتى يعطيها الله له، عالماً أن وعد الله صادق. صحيح أن شاول كان يريد تعطيل مقاصد الله، لكن لا بد أن تتمَّ إرادة الله فلا يخزى داود مدى الدهر. نعم، سيجلس على العرش، ويجيء من نسله «ابن داود» الذي ليس لمُلكه نهاية.

(ب) أن ينقذه بسرعة: «أَمِل إليَّ أذنك. سريعاً أنقِذني» (آية 2أ). مضت سنوات وداود هارب من مكان إلى مكان لا يستقر في موضع. «أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهاراً وليلاً وهو متمهل عليهم؟ أقول لكم إنه ينصفهم سريعاً» (لو 18: 7، 8). وهناك تناقض ظاهري بين «متمهِّل عليهم» وبين «ينصفهم سريعاً». لكن لا يوجد تناقض حقيقي، فمن وجهة نظرنا نظن أن الله يتمهَّل علينا، لكن من وجهة نظره الإلهية ينصفنا سريعاً.

(ج) أن يكون صخرته: «كُن لي صخرة حصن، بيت ملجإ لتخليصي» (آية 2ب). قال بطرس: «يا رب، إلى من نذهب؟ كلام الحياة الأبدية عندك» (يو 6: 68). وقال سليمان: «اسم الرب برج حصين يركض إليه الصديق

ويتمنَّع» (أم 18: 10). وطِلبة «كن لي صخرة حصن» قد تعني: كن لي من جديد صخرة حصن. أو: طمئِن نفسي من جديد. برهِن لي أنك لا زلت كذلك، لأسكن عندك في أمان، وأقيم إقامة دائمة.

(د) أن يهديه ويقوده: «من أجل اسمك تهديني وتقودني» (آية 3ب). يجري الطفل الصغير الخائف إلى أبيه، فيحتضنه ويطمئنه، ويجد عنده الحماية. وبعد أن يطمئن يجري بعيداً. لكن عند الأب دائماً نصيحة مفيدة لولده. قد يقول الأب: أنت خفت لأنك أخطأت في هذا الأمر. فلو انتظر الصغير بعد الطمأنينة قليلاً في حضن أبيه لسمع منه النصيحة والإرشاد. ونحن مثل الطفل، معلوماتنا محدودة نحتاج إلى أب مرشد، ونحن مسافرون نحتاج إلى دليل يرينا الطريق، ونحن جنود المسيح نحتاج أن نتلقَّى توجيهات القائد خطوة بعد خطوة. فلنرفع الطلبة دوماً:«من أجل اسمك تهديني وتقودني». في هذه الطلبة يقول داود للرب: أخذتُ منك الطمأنينة، لكني أريد أن أكون في حضنك قريباً من قلبك. فبمهارة يديك اهدني (مز 78: 72).

(هـ) أن يخرجه من الشبكة: «أخرِجني من الشبكة التي خبأوها لي» (آية 4أ). الأعداء ماكرون أذكياء خبأوا شبكة للمرنم. صحيح أن قوتها كبيرة، لكن قوة الله أكبر. عملهم شرير، لكن الرب هو الصالح الذي يعمل الخير كله.

(و) أن يقبل روحه: «في يدك أستودع روحي» (آية 5). عند الخوف من الوقوع في الخطية، وعند وجود الأعداء الروحيين المحيطين بنا، في يده نستودع روحنا لنجد الإنقاذ. وعند المرض والموت نستودعها بين يديه، لنسمع منه: «تعالوا يا مباركي أبي، رثوا الملكوت المعدَّ لكم منذ تأسيس العالم» (مت 25: 34).

3 - أربعة أمور عملها الله مع المرنم في الماضي:

(أ) نظر الله للمرنم: «نظرتَ إلى مذلتي» (آية 7ب). عادة لا يهتم البشر بالذليل، ويُبعِدون وجوههم عن المنظر المؤلم لأنهم لا يحبون أن يروا المآسي. لكن الله يمنح المؤمن الذليل المتألم عناية خاصة، كما قال لموسى: «رأيت مذلة شعبي الذي في مصر، وسمعت صراخهم من أجل مسخِّريهم. إني علمت أوجاعهم، فنزلت لأنقذهم» (خر 3: 7، 8).

(ب) عرف الله حالة المرنم: «عرفتَ في الشدائد نفسي» (آية 7ج). يعرف البشر بعضهم في وقت الرحب، وقليلاً ما يعرفون بعضهم في وقت الشدة، أما الرب فينظر ويعرف. كلنا ننظر للمتضايقين نظرة عابرة. فإذا كنا نهتم، فإننا نلقي النظرة الثانية المدقِّقة التي تعرف تفاصيل تعب الإنسان الآخر وتساعده. أما الرب فإنه يلقي دائماً علينا النظرة المهتمَّة المدقِّقة الفاعلة. «كثيرة هي بلايا الصدِّيق، ومن جميعها ينجيه الرب» (مز 34: 19).

(ج) أنقذ الله المرنم: «لم تحبسني في يد العدو» (آية 8أ). صحيحٌ أن الله سمح لشاول أن يسعى وراء المرنم، لكنه لم يسلمه إلى يد شاول أبداً. عندما وصل شاول إلى مكان داود ليلقي القبض عليه، سأل داود الرب: «هل يسلِّمني أهل قعيلة مع رجالي ليد شاول؟» فقال الرب: «يسلِّمون» (1صم 23: 12). «وكان شاول يطلبه كل الأيام، ولكن لم يدفعه الله ليده» (1صم 23: 14). أعطى الرب شاول حرية الحركة، لأنه في حكمته وقوته يسمح بقيام الحزب المعارض الذي يعترض على التصرفات الإلهية. لكن قوة الرب الحاضرة دائماً تضع كل شيء في مكانه الصحيح، وتعيد كل أمر إلى نصابه!

(د) الله رحَّب للمرنم: «أقمت في الرحب رجلي» (آية 8ب). وفي ترجمة إنجليزية «وضعت رجلي في غرفة واسعة». أراد شاول أن يضعه في زنزانة أو في قبر، لكن الرب وضع رجله في غرفة متسعة، كما وُضع بولس

وسيلا في السجن الداخلي، ولكن الرب فتح أبواب السجن وأطلقهما حُرَّين ليكرزا بدون عوائق (أع 16: 26). فالرب يفتح ولا أحد يغلق، ويقودنا من وجه الضيق إلى رَحبٍ لا حصر فيه! (أي 36: 16).

ثانياً ـ قصة المتألم

(آيات 9-18)

1 - المرنم في ضيق داخلي: «ارحمني يا رب لأني في ضيق. خسفَت من الغم عيني» (آية 9أ). خسفت بمعنى: دخلت إلى داخل فلم تعد تُرى، فبسبب كثرة الغم لم تعُد عينه تظهر.

«نفسي وبطني» (آية 9ب). عنده تقلصات حتى أنه لم يقدر أن يأكل. لم يقدر أن يستمتع بشيء، فقال: «يا رب ارحمني لأني في ضيق». فنيت حياته من الحزن، وسنوه بالتنهُّد. «ضعُفت بشقاوتي قوتي وبليَت عظامي» (آية 10ب). إنه يتساءل: إلى متى يجري شاول ورائي؟ أنت وعدتني يا رب وأنا بعد صغير أن أصبح ملكاً، ولكن كل هذه السنين وأنا أجري من مكان إلى آخر. هل عندما أصل إلى العرش أكون سليم الجسد لأقود الشعب؟ يا رب جسمي كله متعب!.. وعندما نخور تحت ثقل الآلام الجسدية والمشاكل النفسية، لنرفع هذه الطلبة.

2 - المرنم في ضيق خارجي: «عند كل أعدائي صرتُ عاراً، وعند جيراني بالكلية، ورعباً لمعارفي. الذين رأوني خارجاً هربوا عني» (آية 11). بسبب اضطهاد شاول له لم يشأ أحد أن تكون له علاقة به، لأنهم كانوا يخافون من غضب الملك، الذي قد يستجوبهم وأصدقاءهم ومعارفهم، أو قد يضطهدهم ويقتلهم كما قتل الكهنة في نوب (1صم 22: 18).

كان داود في ضيق من أعدائه، ومن جيرانه ومن معارفه! لم يبقَ له ملجأ بين البشر، فلجأ إلى الملجأ الذي لا يرفض لاجئاً. وكم نشكر الله لأن المسيح الذي تألم مجرَّباً في كل شيء مثلنا (ما عدا الخطية) يقدر أن يعين المجرَّبين، فقد باعه يهوذا، وأنكره بطرس، وتركه كل التلاميذ وهربوا، فقال: «وتتركونني وحدي، وأنا لستُ وحدي لأن الآب معي» (يو 16: 32).

3 - المرنم في ضيق من تقييم الناس له: «نُسيت من القلب مثل الميت. صرتُ مثل إناء مُتلَف» (آية 12). صار مثل الميت، لا أحد يريد أن يذكر اسمه، كما قال أيوب: «أقاربي قد خذلوني، والذين عرفوني نسوني» (أي 19: 14). رجال شُرطة الملك شاول السريون كانوا يتابعونه في كل مكان ليلقوا القبض عليه. صار مثل إناء مكسور بلا قيمة، لا يصلح لشيء إلا لأن يلقوه خارج البيت. إن أخطر شيء أن تضيع من الإنسان ثقته بنفسه!

4 - المرنم في ضيق من كلام الناس وفعلهم: «لأني سمعت مذمَّةً من كثيرين. الخوف مستدير بي بمؤامراتهم معاً عليَّ. تفكروا في أخذ نفسي» (آية 13). مع أن داود كان مثل الميت، إلا أن الناس تكاتفوا ضده، واستمروا يُسمعونه شتائمهم، وهذه هي قساوة نسل الحية! قال النبي إرميا: «لأني سمعتُ مذمَّة من كثيرين. خوفٌ من كل جانب.. لكن الرب معي كجبار قدير. من أجل ذلك يعثر مضطهديَّ ولا يقدرون. خزوا جداً لأنهم لم ينجحوا، خزياً أبدياً لا يُنسى.. رنموا للرب.. لأنه قد أنقذ نفس المسكين من يد الأشرار» (إر 20: 10-13).

5 - عند المرنم بريق أملٍ وسط الشكوى: «أما أنا فعليك توكلت يا رب. قلتُ: إلهي أنت. في يدك آجالي. نجِّني من يد أعدائي ومن الذين يطردونني. أضئ بوجهك على عبدك. خلِّصني برحمتك» (آيات 14-16). اشتكى داود لأن أعداءه شتموه وشوَّهوا سُمعته، حتى فقد ثقته بنفسه، لكنهم لم يقدروا أن يُفقِدوه علاقته بالرب، ولا أن يضيِّعوا منه اعتماده على إلهه، فقال: «عليك توكلت». وبنى داود أمله على أمرين:

(أ) على انتمائه لله: «إلهي أنت» (آية 14ب). فقد اختار أن يكون للرب، فصار الرب له «حبيبي لي وأنا له» (نش 2: 16).

(ب) على أن حياته بيد الله: «في يدك آجالي» (آية 15أ). بمعنى أن «بداية حياتي» و«نهاية حياتي» في يد الرب. كما تعني أن الحياة كلها بكل ما فيها من تغيُّرات وأحزان وأفراح في يده. لن تكون حياة داود في يد شاول، ولا في يد أصدقاء داود أو أعدائه. لسنا متروكين للظروف، لكننا بين يدي إله محب.

وبناءً على هذين السببين طلب من الرب ثلاثة أمور:

(1) النجاة: «نجِّني من يد أعدائي ومن الذين يطردونني» (آية 15ب).

(2) الرضا: «أضئ بوجهك على عبدك» (آية 16أ). يطلب أن يبتسم له الرب ابتسامة الرضا فتنتهي آلامه رغم كثرتها.

(3) الخلاص: «خلصني برحمتك» (آية 16ب). لا اعتماداً على استحقاق شخصي، بل على رحمة ترفع عن المؤمن العقاب الذي يستحقه، وعلى نعمة تمنح المؤمن ما لا يستحقه.

ولا شك أن المرنم كان يفكر في بركات المؤمنين الموعودة في البركة الكهنوتية: «يباركك الرب ويحرسك. يضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك. يرفع الرب وجهه عليك ويمنحك سلاماً» (عد 6: 24-26).

6 - المرنم يطلب عقاب الأشرار: «يا رب، لا تدعني أخزى لأني دعوتُك. ليخزَ الأشرار. ليسكتوا في الهاوية. لتبكم شفاه الكذب المتكلِّمة على الصدِّيق بوقاحة، بكبرياء واستهانة» (آيتا 17 و18). طلب المرنم أن لا يدعه الله يخزى مدى الدهر (آية 1)، بل أن يخزى الأشرار. طلب أن تكون آجاله في يد الرب (آية 15) وطلب للأشرار الموت فيسكتوا في قبورهم. طلب أن ينطلق لسانه بالتسبيح، وأن يخرس الكاذبون الساخرون منه. طلب أن يكون الرب صخرته ومَعقِله (آية 3) وأن تبكم شفاه المتكبرين المستهينين به.

وأعتقد أن مؤمني العهد الجديد لا يصلون طالبين عقاب الأشرار، بل يطلبون لهم التوبة. قال إبراهام لنكلن: «أنا أقتل أعدائي بأن أجعل منهم أصدقاء».

ثالثاً - صلاح الله
(آيات 19-22)

1 - صلاحه كنز لخائفيه: «ما أعظم جودك الذي ذخرته لخائفيك، وفعلته للمتكلين عليك تجاه بني البشر» (آية 19). هذا هتاف النصر، فكلما فكر المتعَب في صلاح الله وجوده يتغلب على كل متاعبه، لأن جود الله كنز مذخَّر يغتني

المحتاج منه، ويلجأ إليه في كل وقت. إنه محفوظ للمؤمن والمــؤمن محفــوظ له (1بط 1: 4، 5). وكـل «مـن يغلب فسأعطيــه أن يأكـل مِن المَن المُخفَى» (رؤ 2: 17). توجد بركات يحفظها الرب للمؤمنين ويخبئها لهم، وتوجـد بركات معلنة. توجد بركات في الدهر الحاضر وبركات في الدهر الآتي. ويرى البشر في العلن ما يمنحه الله للمؤمنين في السر. «كل الذين يرونهم يعرفونهم أنهم نسلٌ باركه الرب» (إش 61: 9) كما قـال داود: «ترتـب قـدامي مائـدة تجـاه مضايقيَّ» (مز 23: 5).

2 - صلاحه يحرس خائفيه: «تسترهم بستر وجهك من مكايد الناس. تخفيهم في مظلة من مخاصمة الألسن» (آيـة 20). في ستر وجه الله نور لا تقدر الظلمة أن تدركه. وتذكر المزامير عدة أماكن يخبئ الرب أولاده فيها، فـلا تطـولهم مكايد الأشرار. هناك «ستر خيمته» (مز 27: 5) و«ستر جناحيه» (مز 61: 4) و«الساكن في ستر العلي في ظل القـدير يبيت» (مز 91: 1). وهنا يقول: «تسترهم بستر وجهك».

3 - صلاحه يصحِّح مسار خائفيه: «مبارك الرب لأنه جعل عجَباً رحمته لي في مدينة محصَّنة. وأنـا قلـت فـي حيرتي إني قد انقطعتُ من قدام عينيك، ولكنك سمعتَ صوت تضرُّعي إذ صرختُ إليك» (آيتا 21، 22). هنـا يصـحح المؤمن مساره. لقد ظنَّ أنه انقطع من قدام عيني الرب، لأن شاول يطارده وهو لا يستقر في مكان. وأصاب اليـأس منـه مداه، فقال: «حياتي قد فنيت بالحزن وسنيني بالتنهُّد» (آية 10). وقد تبعه يونان في ذلك فقال: «قد طُردتُ من أمام عينيك، ولكنني أعود أنظر إلى هيكل قُدسك» (يون 2: 4) فإن الصلاح الإلهي والرحمة السماوية أجريا معه العجائـب. وبعـد أن تكلم عن صلاح الرب أراد أن يتصرف التصرُّف الذي يتناسب مع هذا الصلاح. ظهر له أنه كان مخطئاً لما ظنَّ أن الرب نسيه، لأنه بنى ظنَّه على معلومات خاطئة. وكلما فكر المؤمن في الصلاح الإلهي أصلح أفكاره من نحو الله. فالله لم يـنس ولم يهمل أولاده أبداً.

رابعاً - نصيحتان للأتقياء

(آيتا 23، 24)

هاتان النصيحتان صادرتان من قلب مختبر، فهما في منتهى الأهمية:

1 - أحبّوا الرب: «أحبوا الرب يا جميع أتقيائه» (آية 23أ). الوصية الأولى والعظمى هي: «تحب الرب إلهك مـن كـل قلبك ومن كل نفسك» وأضاف المسيح: «ومن كل فكرك» (تث 6: 5 ومت 22: 37). والذي يحب الرب يطيعه، ويقـرأ كلمته، ويكلمه، ويحتذي مثاله. فليكن فينا فكر المسيح.

ويقدم المرنم سببين لحب الرب:

(أ) لأن الرب أمين: «الرب حافظ الأمانة» (آية 23ب) هذه رحمته وأمانته. دائماً يوفي بوعوده، فلنكن نحن أيضاً أمناء فـي عهودنا معه.

(ب) لأن الرب يجازي المتكبرين: «ومجازٍ بكثرة العامل بالكبرياء» (آية 23ج). وهذه عدالته.

2 - تشجَّعوا بالرب: «لتتشدَّد ولتتشجَّع قلوبُكم يا جميع المنتظرين الرب» (آيــة 24). «شــددوا الأيــادي المســترخية، والــرُّكب المرتعشة ثبِّــتوها. قولوا لخائفي القلوب: تشددوا لا تخافوا. هوذا إلهكم. الانتقام يأتي، جــزاء الله هــو يــأتي ويخلصكم» (إش 35: 3، 4).

وينهي المرنم هذا المزمور بما أنهى به مزمور 27 بطلب انتظار الرب. وكل من ينتظر الرب ينال قوة من عنده، ولا يعوزه شيء من الخير. فلننتظر الرب الذي في يده نستودع روحنا.

اَلْمَزْمُورُ الثَّانِي وَالثَّلاَثُونَ

لِدَاوُدَ. قَصِيدَةٌ

1طُوبَى لِلَّذِي غُفِرَ إِثْمُهُ، وَسُتِرَتْ خَطِيَّتُهُ. 2طُوبَى لِرَجُلٍ لاَ يَحْسِبُ لَهُ الرَّبُّ خَطِيَّةً، وَلاَ فِي رُوحِهِ غِشٌّ.
3لَمَّا سَكَتُّ بَلِيَتْ عِظَامِي مِنْ زَفِيرِي الْيَوْمَ كُلَّهُ، 4لأَنَّ يَدَكَ ثَقُلَتْ عَلَيَّ نَهَاراً وَلَيْلاً. تَحَوَّلَتْ رُطُوبَتِي إِلَى
يُبُوسَةِ الْقَيْظِ. سِلاَهْ. 5أَعْتَرِفُ لَكَ بِخَطِيَّتِي، وَلاَ أَكْتُمُ إِثْمِي. قُلْتُ: «أَعْتَرِفُ لِلرَّبِّ بِذَنْبِي» وَأَنْتَ رَفَعْتَ أَثَامَ
خَطِيَّتِي. سِلاَهْ. 6لِهَذَا يُصَلِّي لَكَ كُلُّ تَقِيٍّ فِي وَقْتٍ يَجِدُكَ فِيهِ. عِنْدَ غَمَارَةِ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ إِيَّاهُ لاَ تُصِيبُ. 7أَنْتَ
سِتْرٌ لِي. مِنَ الضِّيقِ تَحْفَظُنِي. بِتَرَنُّمِ النَّجَاةِ تَكْتَنِفُنِي. سِلاَهْ.
8أُعَلِّمُكَ وَأُرْشِدُكَ الطَّرِيقَ الَّتِي تَسْلُكُهَا. أَنْصَحُكَ. عَيْنِي عَلَيْكَ. 9لاَ تَكُونُوا كَفَرَسٍ أَوْ بَغْلٍ بِلاَ فَهْمٍ، بِلِجَامٍ
وَزِمَامٍ زِينَتِهِ يُكَمُّ، لِئَلاَّ يَدْنُوَ إِلَيْكَ. 10كَثِيرَةٌ هِيَ نَكَبَاتُ الشِّرِّيرِ، أَمَّا الْمُتَوَكِّلُ عَلَى الرَّبِّ فَالرَّحْمَةُ تُحِيطُ بِهِ.
11افْرَحُوا بِالرَّبِّ وَابْتَهِجُوا يَا أَيُّهَا الصِّدِّيقُونَ، وَاهْتِفُوا يَا جَمِيعَ الْمُسْتَقِيمِي الْقُلُوبِ.

التوبة وفرح الغفران

هذا واحد من مزامير التوبة السبعة (6، 32، 38، 51، 102، 130، 143). ونرجو من القارئ أن يعود إلى مقدمة مزمور 6. ويحمل مزمور 32 عنوان «قصيدة» وهي كلمة عبرية قديمة لا تحمل المعنى الذي نفهمه منها اليوم، لأنها تُرجمت في 2أخ 30: 22 «فطنة» فهي تعني التأمل في مراحم الله الذي يغفر خطايا شعبه، فيتفطَّن الإنسان ويزداد حكمة. وهناك صلة بين مزمورنا ومزمور 51 الذي كتبه داود بعد سقوطه في خطيته المعروفة، فقد كتب مزمور 32 بعد أن تأكد من غفران خطاياه، ونوال السلام القلبي. أما مزمور 51 فقد كتبه بعد أن أخطأ، فطلب الغفران.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – ضرورة الاعتراف بالخطية (آيات 1–7).

ثانياً – خطورة عدم الاعتراف بالخطية (آيتا 8، 9).

ثالثاً – نكبات الشرير ومباهج الصديق (آيتا 10، 11).

أولاً - ضرورة الاعتراف بالخطية
(آيات 1-7)

1 - الاعتراف أساس نوال بهجة الغفران: «طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته. طوبى لرجل لا يحسب له الرب خطية ولا في روحه غش» (آيتا 1، 2). طوَّب المزمور الأول مَن لا يخطئ، ولكن سليمان قال في صلاة تدشين الهيكل: «ليس إنسان لا يخطئ» (1مل 8: 46) فكان لا بد من تطويب مَن يتوب عن خطيته فيغفر الله له. فما أسعد من لا يحسب له الرب خطيته، لأنه اعترف بها وتاب عنها، وما أتعس من يصلي في نفسه: «اللهم أنا أشكرك أني لستُ مثل باقي الناس..». وسعيد هو المعترف بذنبه، الذي يصلي: «اللهم ارحمني أنا الخاطئ» (لو 18: 9-14) لأنه يختبر القول: «لهذا رُحمتُ، ليُظهِر يسوع المسيح فيَّ أنا أولاً كل أناة، مثالاً للعتيدين أن يؤمنوا به للحياة الأبدية» (1تي 1: 16). وهذا الغفران يحوِّل جحيم الخاطئ إلى سعادة أبدية. ويصف المرنم البُعد عن الله بثلاث كلمات:

(أ) إثم: وهو العوَج. وطوبى للذي غُفر عوجه، بمعنى أن إثمه رُفع عنه، فلم يعد يثقل كاهله. طوبى لمن ألقى آثامه على «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو 1: 29) فهو الذي حمل خطية كثيرين وشفع في المذنبين (إش 53: 12).

(ب) خطية: وهي عدم إصابة الهدف. وطوبى لمن سُترت خطيته. والستر هو المحو أو التغطية، فلا يعود القاضي الديان يراها، لأن «دم يسوع المسيح ابنه يطهرنا من كل خطية» (1يو 1: 7).

(ج) غش: وهو الفساد الأخلاقي والخداع. وطوبى لمن لا يحسب له الرب غشه، كما قال شمعي بن جيرا لداود: «لا يحسب لي سيدي إثماً، ولا تذكر ما افترى به عبدك» (2صم 19: 19). وكم نشكر المسيح الذي دفع ديوننا وفدانا بذبحه العظيم. فلنلجأ إلى نعمة فدائه دون اعتماد على صلاحنا، فإن «الذي يعمل لا تُحسب له الأجرة على سبيل نعمة بل على سبيل دَيْن. وأما الذي لا يعمل، ولكن يؤمن بالذي يبرِّر الفاجر، فإيمانه يُحسَب له براً، كما يقول داود في تطويب الإنسان الذي يَحسِب له الله براً بدون أعمال: طوبى للذين غُفرت آثامهم وسُترت خطاياهم. طوبى للرجل الذي لا يحسب له الرب خطية» (رو 4: 4-8). وهذا يعني أننا لا نقدر أن نفعل شيئاً ليُذهِب عنا سيئاتنا، فالنفس التي تخطئ تموت. وبسبب عجزنا عن ستر نفوسنا مات المسيح ليكفِّر عنا ويفدينا ويسدِّد ديوننا.

ولا يمكن أن تُستر خطايانا إلا بدم كفارته. عندها نكتسب العلاقة السليمة مع الله، فيشرق وجهه علينا ويبتسم لنا ابتسامة الرضا، فيصير لنا الفرح. وما أعظم نعمة الله التي وضعت نهايةً لإثم الأثيم بالغفران، ولخطية الخاطئ بستر الكفارة، ولغش الغشاش باحتساب بر المسيح له! فالنعمة السماوية لا تحسب للخاطئ المعترف التائب خطاياه، إنما تحسب له بر المسيح، ويكمن سرَّ هذا «الحسبان» في القول: «إن كان واحدٌ قد مات لأجل الجميع، فالجميع إذاً ماتوا.. أي إن الله كان في المسيح مصالحاً العالم لنفسه، غير حاسبٍ لهم خطاياهم» (2كو 5: 14، 19).

2 - بؤس عدم الاعتراف: «لما سكتُّ بليت عظامي من زفيري اليوم كله، لأن يدك ثقُلت عليَّ نهاراً وليلاً. تحوَّلت رطوبتي إلى يبوسة القيظ» (آيتا 3، 4). عندما أخطأ المرنم رفض أن يعترف بخطيته أمام نفسه، ثم لله، ثم لمن أساء إليهم. وكلما حاول الإنسان أن يخفي خطيته زادت نيران الشعور بالذنب داخله. ولكن الله لم يترك داود في بؤس عدم الاعتراف لأنه يحبه، فأوقع عليه العقاب الثقيل، فاستيقظ ضميره واعترف بخطيته. يبدو أن مرض الحمى أصابه، فأخذ يزفر كالأسد الجريح «والروح المنسحقة تجفِّف العظم» (أم 17: 22). لقد فصل المرنم نفسه عن ينبوع الماء الحي فتحوَّلت رطوبته إلى يبوسة الجو القائظ. كان ألمه الجسدي والنفسي عظيماً ومستمراً وبلا علاج، حتى اعترف. فما أشقى من لا يعترف بذنبه، وما أسعد من يعترف به. في مثل هذا الموقف قال داود: «لأن سهامك قد انتشبت فيَّ، ونزلت عليَّ يدك. ليست في جسدي صحة من جهة غضبك. ليست في عظامي سلامة من جهة خطيتي» (مز 38: 2، 3). حقاً «مَن يكتم خطاياه لا ينجح، ومن يقرُّ بها ويتركها يُرحَم» (أم 28: 13).

3 - الاعتراف يجيء بالغفران: «قلتُ أعترف للرب بذنبي وأنت رفعتَ آثام خطيتي» (آية 5). ما أعظم سعادة النفس المعترفة اعترافاً كاملاً وصريحاً لأنها تختبر غفران الله، ويحدث فيها تغيير كامل. قال القديس ترتليان «كلما قلَّ صفحُك عن نفسك زاد صفح الله لك». لقد رفع الله عن كاهل المرنم ثقل إثمه، وأطلقه في حرية مجد أولاد الله (رو 8: 21).

4 - دعوة للاعتراف: «لهذا يصلي لك كل تقي في وقت يجدك فيه. عند غمارة المياه الكثيرة إياه لا تُصيب. أنت سترٌ لي من الضيق تحفظني. بترنُّم النجاة تكتنفني» (آيتا 6، 7). لما كان الاعتراف لله بالخطية أساس بهجة نوال الغفران، ولما كان عدم الاعتراف يؤدي إلى البؤس، فإن التقي الذي يخاف الله يصلي طالباً الغفران في كل وقت يجد الله فيه، وهو الآن! «هوذا الآن وقت مقبول. هوذا الآن يوم خلاص.. اليوم إن سمعتم صوته فلا تقسّوا قلوبكم» (2كو 6: 2 وعب 3: 7، 8). قال المسيح: «من يُقبل إليَّ لا أخرجه خارجاً» (يو 6: 37) وقال الله: «التفتوا إليَّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض لأني أنا الله وليس آخر» (إش 45: 22). إنه الآن! «أما أنا فلك صلاتي يا رب في وقت رضى» (مز 69: 13) فقد تضيع الفرصة ويسمعون الله يقول: «حينئذ يدعونني فلا أستجيب.. لم يرضَوْا مشورتي» (أم 1: 28، 30). ويذكر المرنم أربع بركات نالها المعترِف:

(أ) نال النجاة: «عند غمارة المياه الكثيرة إياه لا تصيب» (آية 6ب). والغمارة هي الطوفان الكبير الذي يهلك الخاطئ، ولكنه لا يصل للمؤمن الواقف على الصخر الذي يشبه الناجين في فلك نوح.. كانت غمارة المياه تسقط على كل سكان الأرض وتقتلهم، ولكن المحتمي في الفلك «إياه لا تصيب». فلنَحْتمِ في المسيح فُلك نجاتنا لأنه كفارة خطايانا.

(ب) نال الستر: «أنت ستر لي» (آية 7أ). «لأنه يخبئني في مظلته في يوم الشر. يسترني بستر خيمته. على صخرة يرفعني» (مز 27: 5) «تسترهم بستر وجهك من مكايد الناس» (مز 31: 20) «الساكن في ستر العلي في ظل القدير يبيت» (مز 91: 1).

(ج) نال الحفظ: «من الضيق تحفظني» (آية 7ب). كل من يستره الله يعيش في الحفظ الإلهي، ولا يضره شيء. حقاً «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلَّصهم» (إش 63: 9).

(د) نال الفرح: «بترنُّم النجاة تكتنفني» (آية 7ج). فيحيط الترنيم به حيثما ذهب، لأنه يكون فرحٌ في السماء بخاطئ واحد يتوب.. ويكون فرح قدام ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب (لو 15: 7، 10). «حينئذٍ امتلأت أفواهنا ضحكاً وألسنتنا ترنُّماً» (مز 126: 2).

ثانياً - خطورة عدم الاعتراف بالخطية

(آيتا 8، 9)

1 - عدم الاعتراف يعطل خطة الله: «أعلّمك وأرشدك الطريق التي تسلكها» (آية 8أ). استجابةً لصلاة المرنم المعترف التائب يكلّمه الله بكلمة تعليم وإرشاد. لقد وضع الله خطة صالحة لحياة كل واحد منا، وهو يعلِّمنا ويرشدنا إلى طرقه، وينصحنا ونحن نسير فيها، ويراقبنا ويتابعنا بعين محبته. «الرب صالح ومستقيم، لذلك يعلِّم الخطاة الطريق.. مَن هو الإنسان الخائف الرب؟ يعلمه طريقاً يختاره» (مز 25: 8، 12).

ينادينا الله بصوت الحب ليردَّنا إليه في عظة نسمعها في كنيسة، أو بصدمة في حادث، أو في فقدان أموال، أو في خيانة صديق، أو بآية كتابية تهز القلب والمشاعر، أو بتأثير وقدوة صديق صالح. ويقول: «أنصحك. عيني عليك» (آية 8ب) لأنه يريدنا أن نسلك في طريق مستقيم، باختيارنا الحر، تحت قيادته وحمايته. ولكن عندما نعاند صوته، ونستمر في خطايانا ولا نعترف بها ولا نتوب عنها، نعطل خطته الحلوة الصالحة لحياتنا.

2 - عدم الاعتراف يدمِّر قوى النفس: «لا تكونوا كفرس أو بغل بلا فهم. بلجام وزمام زينته يكمُّ» (آية 9). وجاءت في ترجمة دار المشرق: «لا تكُن كالفرس والبغل بغير فهم. بشكيمةٍ ورَسَنٍ يُكبَح جماحهما لكي لا يقتربا منك». هذا تحذير لكل من يتغافل خطة الله لحياته ويرفض طاعته. يصير كالبغل الذي يرمز للعناد، وكالفرس الجامح. ويضع الناس لجاماً في فم الفرس أو البغل، للزينة وللتوجيه، ليخضع الحيوان لصاحبه. فإن لم يقترب الإنسان من الله ويطيعه بكامل حريته واختياره يصير كالحيوان الجامح الذي يحتاج إلى لجام وزمام حتى يصبح طوع أمر صاحبه «لئلا يدنو» إلى صاحبه فيهاجمه ويضره ويؤذيه. والإنسان الذي في كرامة ولا يفهم يشبه البهائم التي تُباد (مز 49: 20).

إننا لا نحتاج إلى لجام لأن الله أعطانا عقولاً. لكن عندما نسلك في جهلٍ وعناد كالحيوان، يستخدم الله معنا القسوة ليُرجعنا إليه. فلا نكون معاندين مثل قايين الذي قال الله له: «لماذا سقط وجهك؟ إن أحسنتَ أفلا رفع؟ وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة» (تك 4: 6، 7). ولكن قايين لم يحسن! ولا نكن معاندين مثل بلعام الذي عصى الرب وأحب أجرة الإثم، ولكنه حصل على توبيخ تعدّيه، إذ منع حماقته حمارٌ أعجم ناطقاً بصوت إنسان (عدد 22 و2بط 2: 15، 16).

ثالثاً - نكبات الشرير ومباهج الصديق
(آيتا 10، 11)

في هاتين الآيتين مقارنة بين مصير الشرير والصديق، وهي دعوة للاعتراف بالخطية وللتوبة.

1 - نكبات الشرير كثيرة: «كثيرة هي نكبات الشرير» (آية 10أ). لا نكبة واحدة بل نكبات متتابعة! تُرى هل تستحق الخطية كل الثمن المدفوع فيها؟ «ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟» (مت 16: 26). ما أكثر نكبات الشرير التي جلبها على نفسه لأنه قاوم المشيئة الإلهية، ثم رفض الاعتراف بخطيته، مع أن الله دعاه للتوبة مراراً، فجاء الشيطان وخطف ما قد زُرع في قلبه (مت 13: 19).

2 - مراحم الصديق عظيمة: «أما المتوكل على الرب فالرحمة تحيط به» (آية 10 ب). المتوكل على الرب هو الذي يتصرف في نور كلمة الله، معتمداً على المواعيد الإلهية، ومطيعاً للتوجيهات السماوية، فيقول: «إنما خير ورحمة يتبعانني كل أيام حياتي» (مز 23: 6) فالرحمة والحق ملاكان حارسان يتبعان المؤمن. وعندما يعترف الإنسان ويتوب يصبح صدِّيقاً باراً صاحب موقف سليم نحو الله، يقول: «إذ قد تبرَّرنا بالإيمان لنا سلام مع الله» (رو 5: 1). ويصير قلبه مستقيماً لأنه يتجه الاتجاه السليم من الله، مثل العشار الذي صلى: اللهم ارحمني أنا الخاطئ، فنزل إلى بيته مبرَّراً صدِّيقاً مستقيم القلب. هذا التائب وأمثاله تحيطهم المراحم إحاطة السوار بالمعصم، فيفرحون ويبتهجون بالرب كل حين (في 4: 4) ويصير فرح الرب قوتهم (نح 8: 10).

ما أكثر الذين يطلبون المراحم الأرضية، من صحة وبنين ومال وراحة بال. ولكن ما أحوجهم لأن يطلبوا أولاً ملكوت الله وبره فيزيد الله لهم هذه كلها (مت 6: 33) وبداية طلب الملكوت هي الاعتراف بالخطية وطلب الغفران واتخاذ الموقف السليم من الله.

والآية الأخيرة من مزمورنا تطبيق للآية الأولى منه. تقول بداية المزمور: «طوبى للذي غُفر إثمه» وتقــول نهايتــه: «افرحوا بالرب وابتهجوا أيها الصدّيقون» (آية 11أ). يا من حُسب لكم برُّ الرب، وقد تبرَّرتم بنعمته بالفداء الذي بالمسيح. «اهتفوا يا جميع المستقيمي القلوب» (آية 11ب) لأن الله لا يحسبكم آثمين، فقد غفر إثمكم بعد أن اعترفتم بــه، فــاعتبركم مستقيمين. صحيح أنكم أخطأتم الهدف، لكن بعد توبتكم عرفتم الهدف الصــحيح، فجــدَّد الله حيــاتكم وغيَّرهــا، وجمَّلهــا بخلاصه، ورفع عنكم خطاياكم، وملأ أفواهكم بالتهليل والتسبيح له. ليس الفرح امتيازكم فقط، لكنه واجبكم أيضاً! لا مكان للتذمُّر ولا للحزن في ما بعد!

لنرجع إلى الرب تائبين فيرحمنا ويكثر لنا الغفران (إش 55: 7).

اَلْمَزْمُورُ الثَّالِثُ وَالثَّلاَثُونَ

1اهْتِفُوا أَيُّهَا الصِّدِّيقُونَ بِالرَّبِّ. بِالْمُسْتَقِيمِينَ يَلِيقُ التَّسْبِيحُ. 2احْمَدُوا الرَّبَّ بِالْعُودِ. بِرَبَابَةٍ ذَاتِ عَشَرَةِ
أَوْتَارٍ رَنِّمُوا لَهُ. 3غَنُّوا لَهُ أُغْنِيَةً جَدِيدَةً. أَحْسِنُوا الْعَزْفَ بِهُتَافٍ، 4لأَنَّ كَلِمَةَ الرَّبِّ مُسْتَقِيمَةٌ، وَكُلُّ صُنْعِهِ بِالأَمَانَةِ.
5يُحِبُّ الْبِرَّ وَالْعَدْلَ. امْتَلأَتِ الأَرْضُ مِنْ رَحْمَةِ الرَّبِّ. 6بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ، وَبِنَسَمَةِ فَمِهِ كُلُّ
جُنُودِهَا. 7يَجْمَعُ كَنَدٍّ أَمْوَاهَ الْيَمِّ. يَجْعَلُ اللُّجَجَ فِي أَهْرَاءٍ. 8لِتَخْشَ الرَّبَّ كُلُّ الأَرْضِ، وَمِنْهُ لِيَخَفْ كُلُّ سُكَّانِ
الْمَسْكُونَةِ. 9لأَنَّهُ قَالَ فَكَانَ. هُوَ أَمَرَ فَصَارَ. 10الرَّبُّ أَبْطَلَ مُؤَامَرَةَ الأُمَمِ. لاَشَى أَفْكَارَ الشُّعُوبِ. 11أَمَّا مُؤَامَرَةُ
الرَّبِّ فَإِلَى الأَبَدِ تَثْبُتُ. أَفْكَارُ قَلْبِهِ إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ.

12طُوبَى لِلأُمَّةِ الَّتِي الرَّبُّ إِلَهُهَا، الشَّعْبِ الَّذِي اخْتَارَهُ مِيرَاثاً لِنَفْسِهِ. 13مِنَ السَّمَاوَاتِ نَظَرَ الرَّبُّ، رَأَى
جَمِيعَ بَنِي الْبَشَرِ. 14مِنْ مَكَانِ سُكْنَاهُ تَطَلَّعَ إِلَى جَمِيعِ سُكَّانِ الأَرْضِ. 15الْمُصَوِّرُ قُلُوبَهُمْ جَمِيعاً، الْمُنْتَبِهُ إِلَى كُلِّ
أَعْمَالِهِمْ. 16لَنْ يَخْلُصَ الْمَلِكُ بِكَثْرَةِ الْجَيْشِ. الْجَبَّارُ لاَ يُنْقَذُ بِعِظَمِ الْقُوَّةِ. 17بَاطِلٌ هُوَ الْفَرَسُ لأَجْلِ الْخَلاَصِ،
وَبِشِدَّةِ قُوَّتِهِ لاَ يُنَجِّي. 18هُوَذَا عَيْنُ الرَّبِّ عَلَى خَائِفِيهِ الرَّاجِينَ رَحْمَتَهُ، 19لِيُنَجِّيَ مِنَ الْمَوْتِ أَنْفُسَهُمْ، وَلِيَسْتَحْيِيَهُمْ
فِي الْجُوعِ.

20أَنْفُسُنَا انْتَظَرَتِ الرَّبَّ. مَعُونَتُنَا وَتُرْسُنَا هُوَ. 21لأَنَّهُ بِهِ تَفْرَحُ قُلُوبُنَا، لأَنَّنَا عَلَى اسْمِهِ الْقُدُّوسِ اتَّكَلْنَا.
22لِتَكُنْ يَا رَبُّ رَحْمَتُكَ عَلَيْنَا حَسْبَمَا انْتَظَرْنَاكَ.

دعوة للتسبيح

هذا المزمور دعوة للفرح والتسبيح لله بعد أن أنعم الله بالغفران على المرنم الذي اعترف بخطيته في مزمور 32، وتأكد أن الله ستر خطيته، فقال: «طوبى للذي غُفر إثمه وسُترت خطيته» (آية 1) وأنهى مزموره بأن دعا المؤمنين: «افرحوا بالرب وابتهجوا يا أيها الصدّيقون، واهتفوا يا جميع المستقيمي القلوب» (آية 11). ثم بدأ مزمور 33 بذات الدعوة: «اهتفوا أيها الصدّيقون. بالمستقيمين يليق التسبيح. احمدوا الرب بالعود. غنوا له أغنية جديدة». فالذين متَّعهم الرب بمغفرة خطاياهم يجتمعون معاً ليرتلوا ويشجّعوا بعضهم بعضاً على أن يغنّوا أغنية شكر جديدة، يمجدون فيها الله من أجل صفاته وأعماله، فهو الخالق والملك والقاضي والمخلِّص، الذي بدأت العلاقة السليمة معه بالغفران والقبول أمامه، فيهتف الصدِّيقون ويعظمونه، ويعلنون ثقتهم فيه، وينتظرونه في خشوع.

في مباريات كرة القدم لا تُحسَب الأهداف إلا لأعضاء الفريق. صحيحٌ أن المتفرجين يراقبون، لكن لو قام أحدهم بإصابة الهدف فإنه لا يُحتسب له. فإن كنت تريد أن تصيب الهدف الذي خلقك الله لأجله، وأن تتمتع بالفرح الروحي، لا تكتفِ بأن تكون من المشاهدين، بل من المشتركين المختبرين، بأن تنضم لجماعة الرب فتنعم بالفرح الحقيقي الذي يمتع الله به الذين لا يحسب لهم خطية بعد أن وضعوا ثقتهم في كفارة المسيح، وتنادي معهم: «احمدوا الرب بالعود. بربابة ذات عشرة أوتار رنِّموا له. أحسنوا العزف بهتاف» فإن إلهنا يستحق كل ترتيل وتمجيد وتسبيح، لأنه قَبِلَنا بالرغم من خطيتنا، وأنعم علينا بحلول المسيح بالإيمان في قلوبنا، فصرنا فيه خليقة جديدة.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – دعوة المؤمنين للتسبيح (آيات 1–3)

ثانياً – تسبيح إله الخليقة (آيات 4–11)

ثالثاً – تسبيح إله البشر (آيات 12–19)

رابعاً – كيف يكون التسبيح؟ (آيات 20–22)

أولاً - دعوة المؤمنين للتسبيح

(آيات 1-3)

1 - وصف المسبِّحين:

(أ) هم الصدّيقون: «اهتفوا أيها الصدِّيقون بالرب» (آية 1أ). نال المؤمنون موقفاً جديداً من الله هو موقف الصدِّيقين، أي المبرَّرين. فبعد أن كانوا خطاة منفصلين عنه صاروا صدِّيقين أصحاب موقف سليم منه، يتلقّون الدعوة لأن يهتفوا ويسبحوا الرب الذي برَّرهم وغفر لهم. «فإذ قد تبرَّرنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح» (رو 5: 1) لأنه قد حُسب لنا بر المسيح. ومعروف أن «الكل قد زاغوا معاً. فسدوا. ليس من يعمل صلاحاً. ليس ولا واحد» (مز 14: 3). لكن الصدّيق المستقيم الصالح البار هو الذي احتمى في دم المسيح فستَرَهُ، وقرر في قلبه أن يحيا حياة الاستقامة.

(ب) هم المستقيمون: «بالمستقيمين يليق التسبيح» (آية 1ب). الصدِّيق هو المستقيم. كان يوسف الصدِّيق مستقيماً رفض الدعوة العوجاء من سيدته فلم يرتكب الإثم (الذي هو العوَج). هؤلاء الصدّيقون المستقيمون صارت لهم طبيعة جديدة، يليق بصاحبها أن يسبِّح، لأن الله أنعم عليه بالتبني، فهو يسبح أباه المعتني به، الذي له علاقة شخصية معه. «ذابح الحمد يمجدني» (مز 50: 23). أما الخاطئ فلا يفرح بالتسبيح لأنه منفصلٌ عن الله، ولا علاقة له به.

2 – آلات المسبِّحين: «احمدوا الرب بالعود. بربابة ذات عشرة أوتار رنِّموا له» (آية 2). يشترك المؤمنون مع كل خليقة الله في الترنيم والتسبيح لله، فالجبال تغني (إش 55: 12) وأشجار الوعر تغني (1أي 16: 33) والأودية تغني (مز 65: 13) وكواكب الصبح معاً وجميع بني الله (أي 38: 7). وفي سفر الرؤيا نقرأ عن ترنيم 144 ألف مؤمن كُتب اسم الرب على جباههم، يعزفون بقيثاراتهم ويرنمون ترنيمة جديدة أمام العرش (رؤ 14: 1–5).

وفي التسبيح كلمات، ولحن، وأصواتٌ، وآلات موسيقية:

(أ) هناك الكلمات: وهي نتيجة انفعال مؤمن يحب الرب، لأنه لمس قلبه بإحسانه، ففاض بكلام صالح، وأنشد قصيدة يمجِّده بها، لأن مراحمه لا تزول وهي جديدة في كل صباح (مرا 3: 22، 23). وقد ينفعل المؤمن نفسه فيضع لكلمات تسبيحه لحناً موسيقياً مناسباً، أو قد يقرأ الكلمات مؤمنٌ آخر فيتأثر بها ويلحِّنها لمجد الرب.

(ب) وهناك الأصوات: ترتفع وتشدو بالترتيل، بعضها جميل يرنم في الجوقة، وبعضها يعوزه الجمال، ولكنها كلها تشترك في تسبيح الرب وشكره، لأنه وهبها التبرير والموقف السليم منه، وأعطاها الحياة الجديدة ولسان الترنُّم، فالترتيل واجب كما أنه امتياز.

(ج) وهنـاك الآلات الموسـيقية: تصاحب الترنيم لتُضفي عليه جمالاً، من عود وربابة ذات عشرة أوتار، وهي أفضل آلات العزف في زمان المرنم. لكن حتى لو لم تكن هناك آلات عزف فإن المؤمنين يترنمون ويرتلـون فـي قلوبهم للرب (أف 5: 19). وفي هذا التسبيح تشابه وجِدَّة «غنّوا له أغنية جديدة. أَحسِنوا العزف بالهتاف» (آية 3). ويرنم المؤمن في تسابيح فردية أو مع المؤمنين في شركة جماعية.

ثانياً ـ تسبيح إله الخليقة

(آيات 4-11)

تسبِّح كل الخليقة إلهها:

1 - بسبب استقامته وأمانتـه: «لأن كلمة الرب مستقيمة، وكل صُنعه بالأمانة. يحب البر والعدل. امـتلأت الأرض من رحمة الرب» (آيتا 4، 5). كلمات الرب وأفعاله مستقيمة وأمينة، وكلاهما يعلنان عن إرادته الصالحة. «كـل عطيـة صالحة وكل موهبة تامة هي من فوق، نازلة من عند أبي الأنوار، الذي ليس عنده تغيير ولا ظل دوران» (يـع 1: 17). لهذا يهتفون له: «العدل والحق قاعدة كرسيِّك. الرحمة والأمانة تتقدَّمان أمام وجهك» (مز 89: 14). تشهد الطبيعة لأمانته بصدق قوانينها، فيمكنك مثلاً أن تعتمد دائماً على قانون الجاذبية، وتستخدمه في حياتك. وتعلّمنا صدق قوانين الله أن أمانته مطلقة، وأنه كثير الإحسان والوفاء (خر 34: 6).

2 - بسبب عظيم قوتـه: «بكلمة الرب صُنعت السموات وبنسمة فمه كل جنودها» (آية 6). خلق الله السموات بكل ما فيها مـن كواكب وملائكـة. «كـل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان» (يو 1: 3). «مَن جمـع الـريح فـي حَفنتيه؟ مَن صرَّ المياه في ثوب؟ من ثبَّت جميع أطراف الأرض؟ ما اسمه، وما اسـم ابنـه إن عرفـت؟» (أم 30: 4). و«جنود السماء» هم الشمس والقمر والنجوم لأنها تتحرك كجيش منضبط طاعةً لأمر الله «ارفعوا إلـى العـلاء عيـونكم وانظروا. من خلق هذه؟.. لكثرة القوة، وكونه شديد القدرة لا يُفقَد أحدٌ» (إش 40: 26).

«يجمع كندٍّ أمواه اليمّ» (آية 7أ): في البدء كانت المياه تغطي اليابسة، فقال الله: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة. وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضاً، ومجتمع المياه دعاه بحاراً» (تك 1: 9، 10). فهل يسـتطيع أحد أن يوقف الماء كحائط؟ الله وحده يفعل ذلك بواسطة أنبيائه الصالحين الصادقين: فعله بواسـطة موسـى، وبواسـطة يشوع، وبواسطة إيليا وبواسطة أليشع. ففي وقت الخروج «مدَّ موسى يده على البحر (الأحمر) فأجرى الربُّ البحرَ بـريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة، وانشقَّ الماء، فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، والماء سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم» (خر 14: 21، 22)، فقالوا في تسبيحة النجاة: «بريح أنفك تراكمت المياه. انتصبت المجـاري كرابية. تجمَّدت اللجج في قلب البحر» (خر 15: 8). وفي وقت عبور نهر الأردن «عند إتيان حاملي التابوت إلى (نهـر) الأردن، وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفَّة المياه، والأردن ممتلئ إلى جميع شطوطه.. وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت ندّاً واحداً» (يش 3: 15، 16). أما إيليا فقد أخذ رداءه «ولفَّه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك، فعبـرا كلاهما (إيليا وأليشع) في اليبس» (2مل 2: 8). وعندما أخذ أليشع رداء إيليا ذهب إلى نهر الأردن وقال: «أين هو الـرب إله إيليا؟ ثم ضرب الماء أيضاً فانفلق إلى هنا وهناك، فعبر أليشع» (2مل 2: 14).

«يجمع اللجج في أهراء» (آية 7ب). الأهراء هي المخازن. ويقصد المرنم أن الله العظيم يخزن المياه فـي السـحب، وفي البحار والمحيطات ليستخدمها في الوقت الذي يريده لتحقِّق أغراضه، كما قيل إنه يوم طوفان نوح «انفجرت كل ينابيع

الغمر العظيم، وانفتحت طاقات السماء» (تك 7: 11). وقال الله لأيوب: «أَدَخلتَ إلى خزائن الثلج، أم أبصــرتَ مخــازن البَرَد، التي أبقيتُها لوقت الضَّرِّ، ليوم القتال والحرب؟» (أي 38: 22، 23).

3 – بسبب شمول سلطانه: «لتخشَ الربَّ كلُّ الأرض، ومنه ليخَفْ كل سكان المسكونة. لأنه قال فكان. هــو أمــر فصار» (آيتا 8، 9). خلق الله الكون وما فيه بكلمة منه. ويطلب المرنم أن يعترف كل سكان الأرض بسلطانه الذي يمتـد إلى كل الأرض وليس إلى شعبه فقط، ويطلب من أجل كل أمم الأرض أن يخافوا الرب لأن مخافته بــدء الحكمــة (أم 9: 10). يتمتع سكان الأرض جميعاً من أبرار وأشرار بعطايا الله، وعليهم جميعاً أن يتَّقوه ويسبحوه لأنه يرعاهم ويحفظهــم بمعجزاته كل يوم، ســواء

الشمس ذات يوم، أو لم نجد أوكسجيناً في الجو؟ لو أننا فكرنا في معجزاته معنــا لنادينــا بعضُنــا بعضــاً قــائلين: «اهتفوا أيها الصدّيقون بالرب. بالمستقيمين يليق التسبيح».

4 – بسبب حكمة تدبيره: «الرب أبطل مؤامرة الأمم. لاشى أفكار الشعوب. أما مؤامرة الرب فإلى الأبــد تثبــت. أفكار قلبه إلى دور فدور» (آيتا 10، 11). «في قلب الإنسان أفكار كثيرة، لكن مشورة الرب هي تثبــت» (أم 19: 21). قلوب قادة الدول وتدبيراتهم وقراراتهم في يده. إنهم يفكرون ويتآمرون، والله يخطط ويدبر. فإذا تناقضــت أفكــارهم مــع أفكاره تبطل مؤامراتهم وتتلاشى أفكارهم لأنها شريرة. أبطل الله مشورة أخيتوفل الشريرة (2صــم 15: 31 و17: 23) ، وقَلَب خُطط هامان الأثيم على رأسه (أس 8: 7). أما مؤامرته فتثبت إلى الأبد، وأفكاره إلى دور فدور، لأنهــا تــدبيرات محبة، والمحبة لا تسقط أبداً. إلهنا الصالح يخطط لكل سكان الأرض تخطيط الأب المحب. فما أعظم هذا الإله الذي يليــق له التسبيح.

تساءل المرنم: «لماذا ارتجت الأمم، وتفكَّر الشعوب في الباطل؟ قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً علــى الــرب وعلى مسيحه.. الساكن في السموات يضحك» (مز 2: 1-4) وكأن مجموعة أطفال صغار يريــدون أن يهــدموا جــبلاً! ستتحقَّق رغبات قلب الله المحب، وستنهزم الشرور! «هِيجوا أيها الشعوب وانكسِروا. وأَصغِي يا جميع أقاصــي الأرض. احتزِموا وانكسِروا. احتزِموا وانكسِروا. تشاوروا مشورةً فتَبطُل. تكلَّموا كلمة فلا تقوم. لأن الله معنا» (إش 8: 9، 10).

ثالثاً - تسبيح إله البشر

(آيات 12-19)

1 - يسبّحون صاحب المعرفة الكاملة: «طوبى للأمَّة التي الرب إلهها، الشعب الذي اختاره ميراثــاً لنفســه. مــن السموات نظر الرب، رأى جميع بني البشر، من مكان سُكناه تطلع إلى جميع سكان الأرض. المصــوِّر قلــوبهم جميعــاً. المنتبه إلى كل أعمالهم» (آيات 12-15). خلق الله كل البشر، وهو يراقبهم جميعاً ويعرف كل أعمالهم وأفكــار قلــوبهم، ويعتني بهم، ويشرق بنوره ويُنزِل أمطاره عليهم. ومن بينهم خليقته المختارون، أصحاب المكانة الخاصــة عنــده، لأنــه اختارهم ميراثاً لنفسه، عزيزاً عليه، لا يفرط فيه، ولا يستبدله. والمختار هو الذي يقبل المسيح مخلِّصاً له «كل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه، الذين وُلدوا.. من الله» (يو 1: 12). ويوجِّه الله للبشر جميعــاً دعوة عامة تقول: «التفتوا إليَّ واخلصوا يا جميع أقاصي الأرض» (إش 45: 22) وكل من يقبل هذه الدعوة يصبح مــن جماعة الرب الخاصة المختارة التي قبلته مخلِّصاً، والتي صلى المسيح لأجلها في صلاته الشفاعية: «لأجلهم أقدّس أنا ذاتي ليكونوا هم أيضاً مقدَّسين في الحق» (يو 17: 19) فقد خصص نفسه لجماعة المؤمنين، ليصبحوا خاصته. فليهتفوا شاكرين

لأنهم ينتمون إليه، ولأنهم ميراثه، يقول لهم: «لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه» (مت 6: 8). إن كنت بعيداً عن الله، وارتكبت أخطاء لم تُجازَ عليها، وأنت تظن أن الله لا يحسن ولا يسيء (صف 1: 12)، فلتعلم أن الله لا بد أن يجازي كل واحد حسب عمله، لأنه يعرف كل شيء. «يا رب قد اختبرتَني وعرفتني. أنت عرفت جلوسي وقيامي.. لأنه ليس كلمةٌ في لساني إلا وأنت يا رب عرفتَها كلها.. لم تختفِ عنك عظامي حينما صُنِعت في الخفاء، ورُقِمْتُ في أعماق الأرض» (مز 139: 1، 2، 4، 15).

2 – يسبّحون صاحب القوة الكاملة: «لن يَخلُص الملك بكثرة الجيش. الجبار لا يُنقَذ بعِظم القوة. باطلٌ هو الفرَس لأجل الخلاص، وبشدَّة قوته لا ينجّي» (آيتا 16، 17). يظن الناس أن خلاصهم من أعدائهم يتوقَّف على جيشهم الكبير وترسانتهم العسكرية، لكن الحقيقة هي أن النصر من عند الرب، وليس للرب مانع عن أن يخلّص بالكثير أو بالقليل (1صم 14: 6). أنقذ شعبه الضعيف من يد فرعون القوي، فتمجَّد بفرعون ومركباته وفرسانه (خر 14: 18). وعاد ينقذ شعبه عندما قاد القاضي جدعون ثلاث مئة رجل يحملون أبواقاً وجِراراً ومشاعل ليهزموا الجيش المدياني المكوَّن من 32 ألف جندي (قض 7: 19–25) ولم تقدر قوة المديانيين العظيمة أن تنقذهم، ولا حماهم سلاح فرسانهم من أن يقتلوا بعضهم بعضاً في غمرة رعبهم من سماع أصوات أبواق وجرارٍ تتكسَّر! وكان هذا اختبار داود الصغير أمام جليات الجبار (1صم 17)، كما كان اختبار بطرس في سجن هيرودس (أع 12) واختبار بولس وسيلا في سجن فيلبي (أع 16).

3 - يسبّحون صاحب النجاة الكاملة: «هوذا عين الرب على خائفيه الرّاجين رحمته، لينجي من الموت أنفسهم وليستحييهم في الجوع» (آيتا 18، 19). «لأن عيني الرب على الأبرار، وأذنيه إلى طلبتهم. ولكن وجه الرب ضد فاعلي الشر» (1بط 3: 12). لله شعب مختار من كل قبيلة وشعب ولسان (رؤ 7: 9) يحب الرب ويتمتع برعايته ويتّقيه ويخافه ويرجو رحمته. وينظر الرب إلى شعبه بعين الرضا والرعاية، فينجّي نفوسهم من الموت في الحروب التي يشنُّها عليهم أعداؤهم، ويستحييهم إذا أصاب الجفاف أرضهم ونقصت محاصيلهم الزراعية، ويقول لهم: «أما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة. فلا تخافوا. أنتم أفضل من عصافير كثيرة» (مت 10: 30، 31). وعندما نخاف الرب نتَّقيه، ثم نرجوه وننتظره، فينجي نفوسنا من الموت ويستحيينا في الجوع.

رابعاً - كيف يكون التسبيح؟

(آيات 20-22)

في هذه الآيات الثلاث نرى كيف يجب أن يكون التسبيح:

1 - ليكن التسبيح بروح الانتظار: «أنفسنا انتظرت الرب، معونتنا وترسنا هو» (آية 20). إننا نسبّح إلهاً حياً فعّالاً ننتظره، لأنه معونتنا وترسنا. والترس قطعة خشب مغطاة بالجلد، يتلقّى الجندي بها السهام الموجَّهة ضده، فينغرس فيها سنُّ السهم، فلا يؤذي الجندي. عندما وجد بنو إسرائيل البحر الأحمر أمامهم، والجيش المصري من ورائهم، خافوا جداً، فقال لهم موسى: «لا تخافوا. قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يصنعه لكم اليوم.. الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون» (خر 14: 13، 14). وكان الرب معونتهم وترسهم. ونحن اليوم لا نتبع أوهاماً، فإن «الساكن في ستر العلي في ظل القدير يبيت» (مز 91: 1). ننتظر الرب فيأتي لمعونتنا. إنه لا يقدم لنا تشجيعاً كلامياً فقط بل وعوداً مقرونة بالأفعال. هو الإله

الفاعل في التاريخ، وفي الحاضر والمستقبل، وهو القائل: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الــدهر» (مــت 28: 20). فلنسبِّحه وننتظر خلاصه.

2 - ليكن التسبيح بروح الفرح: «لأنه به تفرح قلوبنا. لأننا على اسمه القدوس اتكلنا» (آية 21). «اسم الرب برج حصين، يركض إليه الصدِّيق ويتمنَّع» (أم 18: 10). واسم الرب يعني شخصه، كامل المحبة والقداسة والحكمة والقــوة، فنتكل بفرح عليه لأنه الحي، صخر الدهور، صاحب السلطان في الأرض كلها، الذي قال: «دُفع إليَّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض» (مت 28: 18). وعندما قال بيلاطس له: «ألست تعلم أن لي سلطاناً أن أصلبك وســلطاناً أن أطلقــك؟» أجابه: «لم يكن لك عليَّ سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق» (يو 19: 10، 11). وعندما يتكل عليـــه المؤمنـــون يجدون الفرح الروحي العميق حتى في أقسى الظروف. في مدينة فيلبي ضُرب الرسولان بولس وسيلا كثيراً، ووُضعا في السجن الداخلي، ولكنهما كانا فرِحَين لأنهما حُسبا مستحقَّين أن يُهانا من أجل اسم المســيح. ولا يمكــن أن يــرنم ســجينٌ مضروب جريح بصوتٍ عالٍ وبفرح حتى يسمعه جميع السجناء إلا إن كان فرحه نابعاً من قوة عليا، ولا غرابة فإن «فرح الرب هو قوتكم» (نح 8: 10). وعندما وجد سجان فيلبي خلاص نفسه «تهلل مع جميع بيته إذ كان قد آمن بالله» (أع 16: 34). فما أسعد شعبه وهم يسمعونه يقول: «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية، ولن تهلــك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي» (يو 10: 27، 28).

3 - ليكن التسبيح بروح الصلاة: حوّل المرنم تسبيحه إلى صلاة قال فيها: «لتكن يا رب رحمتــك علينــا حســبما انتظرناك» (آية 22). يسبحه وينتظر معونته بكل فرح، واثقاً أنه سينال رحمة ويجد نعمة وعوناً في حينه (عــب 4: 16). ويكرر المرنم إعلان انتظاره للرب. وبقدر ما ننتظره يعطينا «وكما آمنتَ ليكن لك» (مت 8: 13). فلنصلِّ واثقين، لأنــه بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه (عب 11: 6).

هناك فرق كبير بين التربية البشرية والتربية الإلهية. فالبشر يفرحون بأن أولادهم وقفوا على أقدامهم واعتمدوا علـــى أنفسهم. أما الآب السماوي فلا يريد أولاداً مستقلين، بل أبناء معتمدين عليه دائماً، لأنهم بدونه لا يقدرون أن يفعلوا شيئاً (يو 15: 5). وحتى عندما يكبرون روحياً ويحققون لمجد الله الشيء الكثير، لا بد أن يظلوا معتمدين عليه. فلنطلب من الله أن يزيد انتظارنا له، وأن يوسع آفاق إيماننا ويعطينا رؤية أكبر. ولتكن رحمته علينا حسبما ننتظره في تحقيق نهضة لحياتنـــا الروحية، ولكنيستنا، فننتعش ونتبارك نحن وبلادنا، ويسود العدل بيننا، ويتوقَّف الظلم، ويتحقَّق قصدُ الله أكثر في حياتنـــا، ونصبح بركة لبلادنا كما أرادنا المسيح أن نكون ملحاً للأرض، ونوراً للعالم، وخميرة صالحة تخمِّر العجين كله.

اَلْمَزْمُورُ الرَّابِعُ وَالثَّلاَثُونَ

لِدَاوُدَ عِنْدَمَا غَيَّرَ عَقْلَهُ قُدَّامَ أَبِيمَالِكَ فَطَرَدَهُ فَانْطَلَقَ

1أُبَارِكُ الرَّبَّ فِي كُلِّ حِينٍ، دَائِماً تَسْبِيحُهُ فِي فَمِي. 2بِالرَّبِّ تَفْتَخِرُ نَفْسِي. يَسْمَعُ الْوُدَعَاءُ فَيَفْرَحُونَ.
3عَظِّمُوا الرَّبَّ مَعِي، وَلْنُعَلِّ اسْمَهُ مَعاً.

4طَلَبْتُ إِلَى الرَّبِّ فَاسْتَجَابَ لِي، وَمِنْ كُلِّ مَخَاوِفِي أَنْقَذَنِي. 5نَظَرُوا إِلَيْهِ وَاسْتَنَارُوا، وَوُجُوهُهُمْ لَمْ
تَخْجَلْ. 6هذَا الْمِسْكِينُ صَرَخَ وَالرَّبُّ اسْتَمَعَهُ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقَاتِهِ خَلَّصَهُ. 7مَلاَكُ الرَّبِّ حَالٌّ حَوْلَ خَائِفِيهِ
وَيُنَجِّيهِمْ. 8ذُوقُوا وَانْظُرُوا مَا أَطْيَبَ الرَّبَّ! طُوبَى لِلرَّجُلِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ. 9اتَّقُوا الرَّبَّ يَا قِدِّيسِيهِ، لأَنَّهُ لَيْسَ عَوَزٌ
لِمُتَّقِيهِ. 10الأَشْبَالُ احْتَاجَتْ وَجَاعَتْ، وَأَمَّا طَالِبُو الرَّبِّ فَلاَ يُعْوِزُهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْخَيْرِ.

11هَلُمَّ أَيُّهَا الْبَنُونَ اسْتَمِعُوا إِلَيَّ فَأُعَلِّمَكُمْ مَخَافَةَ الرَّبِّ. 12مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الَّذِي يَهْوَى الْحَيَاةَ وَيُحِبُّ كَثْرَةَ
الأَيَّامِ لِيَرَى خَيْراً؟ 13صُنْ لِسَانَكَ عَنِ الشَّرِّ وَشَفَتَيْكَ عَنِ التَّكَلُّمِ بِالْغِشِّ. 14حِدْ عَنِ الشَّرِّ وَاصْنَعِ الْخَيْرَ. اطْلُبِ
السَّلاَمَةَ وَاسْعَ وَرَاءَهَا. 15عَيْنَا الرَّبِّ نَحْوَ الصِّدِّيقِينَ، وَأُذُنَاهُ إِلَى صُرَاخِهِمْ. 16وَجْهُ الرَّبِّ ضِدُّ عَامِلِي الشَّرِّ
لِيَقْطَعَ مِنَ الأَرْضِ ذِكْرَهُمْ. 17أُولئِكَ صَرَخُوا وَالرَّبُّ سَمِعَ، وَمِنْ كُلِّ شَدَائِدِهِمْ أَنْقَذَهُمْ. 18قَرِيبٌ هُوَ الرَّبُّ مِنَ
الْمُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيُخَلِّصُ الْمُنْسَحِقِي الرُّوحِ. 19كَثِيرَةٌ هِيَ بَلاَيَا الصِّدِّيقِ، وَمِنْ جَمِيعِهَا يُنَجِّيهِ الرَّبُّ. 20يَحْفَظُ
جَمِيعَ عِظَامِهِ. وَاحِدٌ مِنْهَا لاَ يَنْكَسِرُ. 21الشَّرُّ يُمِيتُ الشِّرِّيرَ، وَمُبْغِضُو الصِّدِّيقِ يُعَاقَبُونَ. 22الرَّبُّ فَادِي نُفُوسِ
عَبِيدِهِ، وَكُلُّ مَنِ اتَّكَلَ عَلَيْهِ لاَ يُعَاقَبُ.

دائماً تسبيحه في فمي

هناك سبعة مزامير أطلق عليها القديس أغسطينوس اسم «مزامير الطريد» (هي 7، 34، 52، 54، 56، 57، 142) كتبها داود أثناء هروبه من مطاردات الملك شاول له، متنقِّلاً من بلد إلى بلد، ومن كهف إلى كهف، وحتى إلى بلاد الفلسطينيين.كتب داود هذا المزمور ترنيمة شكر احتفالاً بعناية الرب بكل الذين يتَّقونه، دعا فيه سامعيه إلى حياة مخافة الرب التي تمنحهم البركة. وقد كتبه بعد أن هرب من وجه الملك شاول إلى «جت» إحدى خمس عواصم للفلسطينيين هي: غزة وأشدود وأشقلون وعقرون وجت. فقال مستشارو الملك «أبيمالك» ملك جت له إن داود هو الذي قتل جليات، وإنه الملك القادم لبني إسرائيل، فتضايق الملك. وأحسّ داود بالخطر، فتظاهر بالجنون، وأخذ يخربش الباب ويُسيل ريقه على لحيته. وصدَّق ملك جت أن داود مجنون فطرده ولم يقتله، فهرب داود ليختبئ في كهف عدلام (1صم 21، 22) حيث اجتمع حوله أربعمائة رجل من المتضايقين، وكان داود رئيساً عليهم. بمناسبة هذه النجاة كتب داود هذا المزمور ترنيمة شكر بدأه بقوله: «أبارك الرب في كل حين. دائماً تسبيحه في فمي».

وقد يتساءل البعض: لماذا ورد اسم ملك جت «أخيش» في سفر صموئيل الأول بينما جاء في عنوان المزمور «أبيمالك»؟ والإجابة: إن اسم الملك الشخصي هو «أخيش» أما لقبه الرسمي فهو «أبيمالك» بمعنى «أب الملك» وهو لقب لملوك الفلسطينيين، كما كانوا يلقِّبون ملك مصر «فرعون» وملك عماليق «أجاج» بالإضافة إلى اسم الملك الشخصي.

ولقد كتب داود مزموراً آخر لهذه المناسبة هو مزمور 56 افتتحه بقوله: «ارحمني يا الله لأن الإنسان يتهمَّمني، واليوم كله محارباً يضايقني» واختتمه بقوله: «لأنك نجَّيت نفسي من الموت. نعم، رجليَّ من الزلق، لكي أسير قدام الله في نور الأحياء». فالنجاة الإلهية من نصيب الذين يحبون الله الذين يريدون أن يطيعوه.

وهذا المزمور هو ثالث المزامير الأبجدية، تبدأ كل آية فيه بأحد حروف الأبجدية العبرية، ما عدا حرف «الواو». سبقه مزمورا 9، 25. وقد اختارته الكنيسة ليُقرأ أثناء التناول من المائدة المقدسة لأن آية 8 فيه تقول: «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب. طوبى للرجل المتكل عليه».

في هذا المزمور نجد:

أولاً – تسبيحة شكر (آيات 1–10)

ثانياً – موعظة من كهف عدلام (آيات 11–14)

ثالثاً – علاقة الرب الطيبة بشعبه (آيات 15–22)

أولاً - تسبيحة شكر

(آيات 1-10)

1 - دعوة للتسبيح: (آيات 1–3).

(أ) هذا التسبيح تلقائي وحماسي: «أبارك الرب» (آية 1أ). ذكر الخطر العظيم الذي تهدَّده وهو في قصر الملك أخيش، وكيف نجاه الرب منه. لقد كان الخطر مفاجأة غير متوقعة كما كانت النجاة غير متوقعة، ففاض قلبه بالشكر لله.

(ب) هو تسبيح مستمر: «في كل حين.. دائماً» (آية 1ب). لم يعد الملك شاول يحتمل وجود داود حياً، فهرب إلى أخيش الذي لم يحتمل أن يراه أيضاً، ولكن الله ابتسم له ابتسامة الرضا وأنقذه من الموت، فقرر أن يقضي كل ما تبقَّى من عمره في تسبيح الله. سعيدٌ هو المؤمن الفرحان الشاكر، الذي تظهر تقواه في ترتيله في أيام المرض كما في أيام الصحة، وفي أوقات الفشل كما في أوقات النجاح.

(ج) هو تسبيح سرّي وعلني: «تسبيحه في فمي. بالرب تفتخر نفسي» (آيتا 1ج، 2أ). لسانه يسبِّح، وقلبه أيضاً يسبح. إنه يفتخر بالرب. لم يفتخر بذكائه في ادِّعاء الجنون الذي انطلى على أبيمالك، ولا افتخر بالأمور الأرضية، ولا بتهنئة الذات بالنجاة، بل بالرب الذي قال: «لا يفتخرنَّ الحكيم بحكمته، ولا يفتخر الجبار بجبروته، ولا يفتخر الغني بغناه. بل بهذا ليفتخرنَّ المفتخر: بأنه يفهم ويعرفني أني أنا الرب، الصانع رحمةً وقضاء وعدلاً في الأرض» (إر 9: 23، 24). فلنفتخر بشخص الرب، وبمواعيده، وبأمانته، وبمعجزاته.

(د) هو تسبيح يؤثّر في سامعيه: «يسمع الودعاء فيفرحون. عظموا الرب معي ولنعلِّ اسمه معاً» (آيتا 2ب، 3). لقد سمع الودعاء دعوته فرتلوا معه. والوديع هو الذي تعلَّم التواضع في مدرسة الألم، فعظَّم الرب مع داود،

اعترافاً بفضل الله وبعظمة نعمته، ونادى «أعطوا عظمةً لإلهنا» (تث 32: 3). «عظيم هو الرب وحميدٌ جداً، وليس لعظمته استقصاء» (مز 145: 3). وكلما شعرنا بعظمة الرب دَعَوْنا غيرنا ليشترك معنا في تسبيحه.

2 - دوافع التسبيح: (آيات 4-10).

ليست النجاة المعجزية من نصيب داود وحده، لكنها لكل الذين يتكلون على الله، فهو رب العالمين. ويذكر المرنم أربعة دوافع للتسبيح:

(أ) النجاة العظيمة: «طلبتُ إلى الرب فاستجاب لي، ومن كل مخاوفي أنقذني» (آية 4). كان خائفاً من شاول كثيراً ومن أخيش قليلاً، ولكن هذا القليل صار كثيراً. غير أن الرب أنقذه من الخوفين الكبير والصغير! يتعرض الخاطئ والمؤمن للأخطار، وغالباً تكون أخطار الخاطئ أقل من أخطار المؤمن، لأن إبليس رئيس هذا العالم يساند الخاطئ. لكن الخاطئ يحيا في خوف أكبر لأنه يعلم أن الله ليس معه. أما المؤمن فيطلب الرب فيستجيب له، ومن كل مخاوفه ينقذه. إن يد الله القادرة تصل إلينا في أعمق هُوَّة نسقط فيها، وعندما ندعوه من كل قلوبنا يستجيب لنا.

(ب) الأيام المشرقة القادمة: «نظروا إليه واستناروا ووجوههم لم تخجل. هذا المسكين صرخ والرب استمعه، ومن كل ضيقاته خلَّصه» (آيتا 5، 6). النظر إلى العالم يصيب الإنسان بالاكتئاب. يكفي أن تقرأ الصفحة الأولى من أية جريدة لترى الشر والكراهية واليأس. أما من ينظر إلى الرب فترتفع معنوياته كما ارتفعت معنويات حنة بعد صلاتها، ولم يكن وجهها بعد مغيَّراً (1صم 1: 18). لقد تطلع الذين لدغتهم الحيات إلى الحية النحاسية، فنالوا الشفاء من السم المميت (عد 21: 9). وترمز الحية إلى المسيح المخلِّص من سم الخطية (يو 3: 14-16). ولذلك يقول المؤمن: «إليك رفعتُ عينيَّ يا ساكناً في السموات. هوذا كما أن عيون العبيد نحو أيدي سادتهم، كما أن عيني الجارية نحو يد سيدتها، هكذا عيوننا نحو الرب إلهنا حتى يترأف علينا» (مز 123: 1، 2). إنه يستنير لأنه يطيع أمر الرب الذي قال للمؤمنين: «قومي استنيري لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليك» (إش 60: 1). عندما رأى موسى مجد الرب لمع وجهه (خر 34: 30). «ونحن جميعاً ناظرين مجد الرب بوجهٍ مكشوف، كما في مرآة، نتغيَّر إلى تلك الصورة عينها، من مجدٍ إلى مجد، كما من الرب الروح» (2كو 3: 18).

(ج) الحماية الملائكية: «ملاك الرب حالٌّ حول خائفيه وينجيهم» (آية 7). ويسمّيه «ملاك حضرته» في القول: «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلَّصهم. بمحبته ورأفته هو فكَّهم ورفعهم وحملهم كل الأيام القديمة» (إش 63: 9). هذا الملاك ينجي خائفي الله وكأنه جيش. ويسمّيه أيضاً «رئيس جند الرب» (يش 5: 14) القادم في جيش ملائكة للحماية، كما حدث مع يعقوب أبي الأسباط، فقد لاقاه ملائكة الله، فقال لما رآهم: «هذا جيش الله» ودعا اسم المكان «محنايم» بمعنى «معسكران» (تك 32: 2). وكما حدث مع غلام النبي أليشع الذي كان خائفاً من الأعداء، فصلى النبي: «يا رب افتح عينيه فيبصر» فرأى الغلامُ الجبلَ مملوءاً خيلاً ومركبات نار حول أليشع (2مل 6: 16).

ينجينا الله من ضيقاتٍ نعرفها ونصرخ إليه منها، فنشكره. وينجينا من ضيقات لا نعرفها، ولم نكن نعلم أنها قادمة علينا، لأنه في محبته يستر الخطر عن عيوننا حتى لا نقلق.

(د) علاقة المؤمن الطيبة بالرب تدفعه للتسبيح: (آيات 8-10).

(1) **هي علاقة شخصية:** «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب. طوبى للرجل المتوكل عليه» (آية 8). يذوق المؤمن صلاح الله عندما يعرفه معرفة قريبة شخصية، فيكتشف صلاحه العظيم، ويتعلم أن يثق فيه ويتوكل عليه، ويكون سلوكه اليومي متوافقاً مع عقيدته، فيصبح قوياً به. قال الرسول بطرس: «ذُقتم أن الرب صالح» (1بط 2: 3) ويقصد بالرب هنا: المسيح. وقال الرسول بولس: «لأعرفه وقوة قيامته» (في 3: 10) ، وهذه معرفة القُرب والاختبار، التي تؤدي إلى السعادة الحقيقية. وكلمة «رجل» المستخدمة في هذه الآية معناها في اللغة العبرية «القوي» فالذي يذوق صلاح الله تصبح حياته الإيمانية والأخلاقية قوية.

(2) **هي علاقة مُغيِّرة:** «اتَّقوا الرب يا قدّيسيه» (آية 9أ). اتَّقوا أي صيروا قديسين، بأن تخافوا الله في سلوككم. والقداسة تعني التكريس والتخصيص لله، كما تعني الطهارة والسلوك الذي يتفق مع دعوتنا لأن نكون لله مملكة كهنة وأمة مقدسة (خر 19: 6) ويقول الله: «إني أنا الرب إلهكم، فتتقدَّسون وتكونون قديسين لأني أنا قدوس» (لا 11: 44). نقول إن هذه الكنيسة «مقدسة» لا لأن مواد بنائها تختلف عن مواد بناء أي بيت مجاور، لكن لأنها مخصصة لله. قال الرسول بولس: «الإله الذي أنا له والذي أعبده» فقد خصَّص نفسه لخدمته (أع 27: 23).

(3) **هي علاقة مباركة:** «لأنه ليس عوزٌ لمتَّقيه. الأشبال احتاجت وجاعت، وأما طالبو الرب فلا يعوزهم شيء من الخير» (آية 9ب، 10). سدَّد الرب أعواز الأرملة المديونة، فملأت دهنة الزيت كل الأوعية التي استعارتها من جيرانها، وباعت الزيت وسددت ديونها، وعاشت هي وبنوها بما بقي (2مل 4: 1-7). أما الأشبال فاحتاجت وجاعت. وقد يقصد المرنم المعنى الحرفي لكلمة «الأشبال» كما قيل: «الليث هالك لعدم الفريسة، وأشبال اللبوة تبددت» (أي 4: 11)، أو قد يقصد بها المضايقين كما قيل: «استردَّ نفسي من تهلكاتهم، وحيدتي من الأشبال». (مز 35: 17). ووحيدته هي حياته، والأشبال هم الأعداء الذين يريدون أن يهلكوه. فيكون المعنى أن القوي الذي يخطف يجوع، أما المؤمن الوديع فيرث الأرض ولا يحتاج إلى شيء. «الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء» (مز 23: 1). «فيملأ إلهي كل احتياجكم بحسب غناه في المجد في المسيح يسوع» (في 4: 19). وقد سأل المسيح تلاميذه: «حين أرسلتُكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية، هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا» (لو 22: 35). إن الذين يعيشون حياة الصلة الشخصية بالله يضمنون لأنفسهم دائماً كل البركات الإلهية.

بشَّر القديس «كولومبا» اسكتلندا بالمسيحية (521-597م). وقبل موته مباشرة كان يكتب تفسيراً لمزمورنا، توقَّف فيه عند آية 10 ولم يكمله، فعلق كاتب سيرته بالقول: «لم يعوز القديس كولومبا شيء آخر من الخير وهو يعيش مع الله هنا، ولن يعوزه شيء من الخير وهو يحيا مع الله هناك. لقد ترك أمانة الوعظ والتعليم لمن سيحمل أمانة ذلك من بعده».

ثانياً - موعظة من كهف عدلام

(آيات 11-14)

بعد أن تظاهر داود بالجنون، هرب من أمام أخيش الملك إلى كهف عدلام، حيث التحق به بعض أهله وأربعمائة رجل، معظمهم هاربون من ديون أو أحكام، وكلهم متضايقون ونفوسهم مُرَّة، ولكنهم قبِلوا قيادته لهم ورياسته عليهم (1صم 22: 1، 2). وذات يوم سبت في عدلام ألقى موعظة كانت إجابة لسؤال أثاروه. وسنتأمل في الواعظ، والسؤال، والموعظة.

1 - الواعظ: «هلمَّ أيها البنون، استمعوا إليَّ فأعلمكم مخافة الرب» (آية 11). هو واعظ رحيم على الخطاة، فينصحهم. صحيحٌ أنه شجاع كمحارب وقوي كقائد، كما أنه مختبرٌ شاركهم معاناة الطرد وهو بريء. غير أن أخلاقياته واهتماماته كانت أرفع من أخلاقياتهم واهتماماتهم، ومعرفته بالله أعمق من معرفتهم، فأخذ من الله تعليماً أعطاه لهم. والواعظ الناجح هو من يستمع لله ثم يُخبِر الناس بما سمعه، لأنه يريد أن تتغيَّر حياتهم للأفضل. كان يمكن أن ينشغل بنجاته الشخصية، أو بأمور الأربع مئة رجل المادية والاقتصادية، لكنه لم ينسَ أبداً الحياة الروحية لهذه الجماعة.

2 - الواعظ يطرح سؤالاً: «من هو الإنسان الذي يهوَى الحياة ويحب كثرة الأيام ليرى خيراً؟» (آية 12). والحياة التي يهواها خائف الله هي الحياة الفضلى التي جاء المسيح ليهبها لنا (يو 10: 10) وهي لا تُقاس بعدد الأيام، بل بالإنجاز والسعادة والطاعة. وهي الحياة ذات المعنى التي تخدم الآخرين وتنمو يوماً بعد يوم في مخافة الله، وهذا هو الخير الأسمى.

3 - الموعظة: ومضمونها أن السعيد هو الذي يخاف الله في كلامه، وفي سلوكه:

(أ) التقوى في الكلام: «صُن لسانك عن الشر وشفتيك عن التكلُّم بالغش» (آية 13). عادة يستخدم المطاريد لغة خشنة، فيتعاركون مع بعضهم ومع غيرهم. وينصحهم الواعظ أنهم إن أرادوا حياة طويلة خيِّرة فعليهم أن يصونوا ألسنتهم عن الشر والغش، فإنه «مِن فضلة القلب يتكلم الفم» (لو 6: 45) فيجب أن تُصلح القلوب. ولن يتم ذلك إلا بإيجاد صلة شخصية بين كل واحد منهم والرب، فيذوقون كم الرب طيب، وأنه طوبى للرجل المتوكل عليه. وكلمة «الرجل» المستخدمة هنا تعني «القوي» القادر أن يسيطر على لسانه، لأنه «إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة. الأشياء العتيقة قد مضت. هوذا الكل قد صار جديداً» (2كو 5: 17).

(ب) التقوى في التصرُّف: «حِد عن الشر واصنع الخير. اطلب السلامة واسعَ وراءها» (آية 14). وما أحوج المطاريد للسلام مع الله ومع النفس ومع الآخرين. وعليهم أن يسعوا وراءه باستمرار بغير يأس. «فلنعكف إذاً على ما هو للسلام وما هو للبنيان بعضنا لبعض» (رو 14: 19). وقد اقتبس الرسول بطرس هذه الكلمات في 1بط 3: 10. لأنه أراد أن يشرح للمؤمنين كيف يحصلون على الحياة ذات المعنى، وذات القيمة، في اللسان الذي نضبطه، وفي السلوك اليومي الذي يحيد عن الشر ويصنع الخير.

ثالثاً - علاقة الرب الطيبة بشعبه

(آيات 15-22)

يختم المرنم مزموره بالحديث عن الرب الصالح في علاقته بشعبه، ويذكر ثلاثة أمور:

1 - الرب يهتم بشعبه: «عينا الرب نحو الصدِّيقين وأذناه إلى صراخهم. وَجه الرب ضد عاملي الشر ليقطع من الأرض ذكرهم. أولئك صرخوا والرب سمع، ومن كل شدائدهم أنقذهم» (آيات 15-17). علاقة الرب بشعبه هي:

(أ) علاقة المعرفة الكاملة: العين التي ترى، والأذن التي تسمع، لأنه أبٌ يهتم بشعبه ويرعاهم. «قولوا للصدِّيق خير، لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم» (إش 3: 10).

(ب) علاقة الرقَّة المتناهية والتدخُّل السماوي: «في ضيقي دعوت الرب وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي، وصراخي قدامه دخل أذنيه» (مز 18: 6). ولما كان المؤمنون يصرخون من اضطهاد ظالميهم،

فإن الرب الذي يهتم بهم يعاقب الأشرار الظالمين، ويقطع من الأرض ذكرهم. أولئك (شعبه) صرخوا والرب أنقذهم من ظالميهم.

2 - الرب يرفع شعبه: «قريب هو الرب من المنكسري القلوب، ويخلّص المنسحقي الروح. كثيرة هي بلايا الصدِّيق ومن جميعها ينجيه الرب. يحفظ جميع عظامه، واحدٌ منها لا ينكسر. الشر يميت الشرير، ومبغضو الصدِّيق يُعاقَبون» (آيات 18-21). والمنكسرو القلوب والمنسحقو الروح هم الذين حطمهم الحزن واليأس والاضطهاد والخطية، فذلوا تحت هذه كلها. لمثل هؤلاء يقول المسيح: «روح السيد الرب عليَّ، لأن الرب مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأعصب منكسري القلب، لأنادي للمسبيين بالعتق وللمأسورين بالإطلاق.. لأعزّي كل النائحين» (إش 61: 1، 2). وكلما انكسر قلب الإنسان يتواضع، ويصبح أكثر استعداداً لتلقّي بركة الرب «لأنه هكذا قال العليُّ المرتفع ساكن الأبد، القدوس اسمه: في الموضع المرتفع المقدَّس أسكن، ومع المنسحق والمتواضع الروح، لأُحيي روح المتواضعين، ولأُحيي قلب المنسحقين» (إش 57: 57). يرفع الرب شعبه المنكسر ويقول لهم: «أجبر الكسير، وأعصب الجريح» (حز 34: 16).

لم يعدنا الرب أبداً أن نعيش بدون ألم، ولم يقل أبداً إننا لا نواجه ضيقاً، لكنه وعدنا أنه في العالم سيكون لنا ضيق، لكن نثق أنه قد غلب العالم، وأننا معه نغلب العالم، لأن الذي فينا أعظم من الذي في العالم (يو 16: 33 و1يو 4: 4). صحيحٌ أن المؤمنين يتألمون، وأن بلاياهم كثيرة من العالم الذي يبغض الحق. لكن إلههم معهم. محبته تنعشهم، ومواعيده تعزيهم، وعرش النعمة مفتوح لهم، ولا بد أن الشر يميت الشرير، والرب يحيي نفس الصدِّيق الذي تبرَّر بما فعله المسيح لأجله بكفارته الكريمة.

«يحفظ جميع عظامه» (آية 20أ). إنه يهتم بالجسد كما يهتم بالروح، فجسد المؤمن هيكل للروح القدس (1كو 6: 19). وقد تحققت هذه النبوَّة في المسيح المصلوب، فقد كسر العسكر ساقي اللصين المصلوبين معه، ولكنهم لم يكسروا ساقيه «لأنهم رأوه قد مات.. لأن هذا كان ليتمَّ الكتاب القائل: عظمٌ لا يُكسر منه» (يو 19: 32-36).

3 - الرب يفدي شعبه: «الرب فادي نفوس عبيده، وكل من اتكل عليه لا يُعاقَب» (آية 22). والفداء هو خلاص النفس من الخطية، وخلاص الجسد من المرض والجوع والألم. كان الأسير يدفع فدية أو فداءً. وقد أكمل المسيح فداءنا لما دفع أجرة خطايانا، فصار لنا من الله براً وقداسة وفداءً (1كو 1: 30) بشرط أن يقبل الخاطئ فداءه بإيمان قلبي. عندها يكون: «لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع، السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح» (رو 8: 1) بعد أن فداهم بدمه، لمدح مجد نعمته. فيقولون: «أبارك الرب في كل حين. دائماً تسبيحه في فمي».

اَلْمَزْمُورُ الْخَامِسُ وَالثَّلاَثُونَ

لِدَاوُدَ

1خَاصِمْ يَا رَبُّ مُخَاصِمِيَّ. قَاتِلْ مُقَاتِلِيَّ. 2أَمْسِكْ مِجَنّاً وَتُرْساً وَانْهَضْ إِلَى مَعُونَتِي، 3وَأَشْرِعْ رُمْحاً
وَصُدَّ تِلْقَاءَ مُطَارِدِيَّ. قُلْ لِنَفْسِي: «خَلاَصُكِ أَنَا». 4لِيَخْزَ وَلْيَخْجَلِ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ نَفْسِي. لِيَرْتَدَّ إِلَى الْوَرَاءِ وَيَخْجَلِ
الْمُتَفَكِّرُونَ بِإِسَاءَتِي. 5لِيَكُونُوا مِثْلَ الْعُصَافَةِ قُدَّامَ الرِّيحِ، وَمَلاَكُ الرَّبِّ دَاحِرُهُمْ. 6لِيَكُنْ طَرِيقُهُمْ ظَلاَماً وَزَلَقاً،
وَمَلاَكُ الرَّبِّ طَارِدُهُمْ، 7لأَنَّهُمْ بِلاَ سَبَبٍ أَخْفُوا لِي هُوَّةَ شَبَكَتِهِمْ. بِلاَ سَبَبٍ حَفَرُوا لِنَفْسِي. 8لِتَأْتِهِ التَّهْلُكَةُ وَهُوَ لاَ
يَعْلَمُ، وَلْتَنْشَبْ بِهِ الشَّبَكَةُ الَّتِي أَخْفَاهَا، وَفِي التَّهْلُكَةِ نَفْسِهَا لِيَقَعْ. 9أَمَّا نَفْسِي فَتَفْرَحُ بِالرَّبِّ، وَتَبْتَهِجُ بِخَلاَصِهِ.
10جَمِيعُ عِظَامِي تَقُولُ: «يَا رَبُّ مَنْ مِثْلُكَ، الْمُنْقِذُ الْمِسْكِينَ مِمَّنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ، وَالْفَقِيرَ وَالْبَائِسَ مِنْ سَالِبِهِ؟».

11شُهُودُ زُورٍ يَقُومُونَ، وَعَمَّا لَمْ أَعْلَمْ يَسْأَلُونَنِي. 12يُجَازُونَنِي عَنِ الْخَيْرِ شَرّاً ثَكَلاً لِنَفْسِي. 13أَمَّا أَنَا
فَفِي مَرَضِهِمْ كَانَ لِبَاسِي مِسْحاً. أَذْلَلْتُ بِالصَّوْمِ نَفْسِي، وَصَلاَتِي إِلَى حِضْنِي تَرْجِعُ. 14كَأَنَّهُ قَرِيبٌ، كَأَنَّهُ أَخِي
كُنْتُ أَتَمَشَّى. كَمَنْ يَنُوحُ عَلَى أُمِّهِ انْحَنَيْتُ حَزِيناً. 15وَلكِنَّهُمْ فِي ظَلْعِي فَرِحُوا وَاجْتَمَعُوا. اجْتَمَعُوا عَلَيَّ شَاتِمِينَ
وَلَمْ أَعْلَمْ. مَزَّقُوا وَلَمْ يَكُفُّوا. 16بَيْنَ الْفُجَّارِ الْمُجَّانِ لأَجْلِ كَعْكَةٍ حَرَّقُوا عَلَيَّ أَسْنَانَهُمْ.

17يَا رَبُّ إِلَى مَتَى تَنْظُرُ؟ اسْتَرِدَّ نَفْسِي مِنْ تَهْلُكَاتِهِمْ، وَحِيدَتِي مِنَ الأَشْبَالِ. 18أَحْمَدُكَ فِي الْجَمَاعَةِ
الْكَثِيرَةِ. فِي شَعْبٍ عَظِيمٍ أُسَبِّحُكَ. 19لاَ يَشْمَتْ بِي الَّذِينَ هُمْ أَعْدَائِي بَاطِلاً، وَلاَ يَتَغَامَزْ بِالْعَيْنِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي
بِلاَ سَبَبٍ. 20لأَنَّهُمْ لاَ يَتَكَلَّمُونَ بِالسَّلاَمِ، وَعَلَى الْهَادِئِينَ فِي الأَرْضِ يَتَفَكَّرُونَ بِكَلاَمِ مَكْرٍ. 21فَغَرُوا عَلَيَّ
أَفْوَاهَهُمْ. قَالُوا: «هَهْ هَهْ! قَدْ رَأَتْ أَعْيُنُنَا». 22قَدْ رَأَيْتَ يَا رَبُّ. لاَ تَسْكُتْ يَا سَيِّدُ. لاَ تَبْتَعِدْ عَنِّي. 23اسْتَيْقِظْ
وَانْتَبِهْ إِلَى حُكْمِي، يَا إِلهِي وَسَيِّدِي إِلَى دَعْوَايَ. 24اقْضِ لِي حَسَبَ عَدْلِكَ يَا رَبُّ إِلهِي، فَلاَ يَشْمَتُوا بِي. 25لاَ
يَقُولُوا فِي قُلُوبِهِمْ: «هَهْ! شَهْوَتُنَا». لاَ يَقُولُوا: «قَدِ ابْتَلَعْنَاهُ!». 26لِيَخْزَ وَلْيَخْجَلْ مَعاً الْفَرِحُونَ بِمُصِيبَتِي. لِيَلْبِسِ
الْخِزْيَ وَالْخَجَلَ الْمُتَعَظِّمُونَ عَلَيَّ. 27لِيَهْتِفْ وَيَفْرَحِ الْمُبْتَغُونَ حَقِّي، وَلْيَقُولُوا دَائِماً: «لِيَتَعَظَّمِ الرَّبُّ الْمَسْرُورُ
بِسَلاَمَةِ عَبْدِهِ». 28وَلِسَانِي يَلْهَجُ بِعَدْلِكَ. الْيَوْمَ كُلَّهُ بِحَمْدِكَ.

بلا سببٍ حفروا لنفسي

كتب داود هذا المزمور في وقت اضطهاد شديد، قد يكون أثناء مطاردة شاول المستمرة له. ولعله في هذا الوقت قال لشاول: «فيكون الربُّ الديانَ، ويقضي بيني وبينك (يا شاول) ويرى ويحاكم محاكمتي وينقذني من يدك» (1صم 24: 15). أو وربما كتبه وقت ثورة ابنه أبشالوم ضده.. كان مضطهدو داود من أحبائه، فقد دافع داود عن شاول الملك وعن كرامته، ومع ذلك أراد قتله لمرضٍ في نفس شاول. فإن كنت قد فعلت خيراً لإنسان وجازاك شراً، ستجد في هذا المزمور عوناً وتشجيعاً.

في هذا المزمور نبوَّة عن المسيا، فيقول المرنم: «لأنهم بلا سبب أخفوا لي هوَّةً» (آية 7) وهي نبوَّة اقتبسها المسيح عن نفسه عندما قال: «رأوا وأبغضوني أنا وأبي.. لكي تتمَّ الكلمة المكتوبة في ناموسهم: إنهم أبغضوني بلا سبب» (يو 15: 24، 25 – مقتبَسة من مزمور 69: 4).

وتصف الآيتان 11، 12 من مزمورنا محاكمة المسيح: «شهود زورٍ يقومون، وعمَّا لم أعلم يسألونني. يجازونني عن الخير شراً، ثَكَلاً (إذلالاً) لنفسي». ولقد سألوا المسيح عن أشياء لم تحدث، وجاء شهود زور كثيرون ولكن شهاداتهم عليه لم تتفق (مر 14: 56).

والمزمور عامر بطلب عقاب العدو. وربما أراد المرنم أن ينصفه الرب ويقضي له بعدالته، فيعلو حق الله وينال هو حقَّه، بعد أن قاسى من شاول، ومن أبشالوم، ومن شِمْعي (2صم 16: 5–13).. فيبدأ بالقول: «خاصِم يا رب مخاصِميَّ، قاتِل مقاتليَّ. أَمسِك مجنّاً وتُرساً وانهض إلى معونتي.. قُل لنفسي: خلاصكِ أنا». إنها كلمات مضطهَد مُتعَب يطلب من ربِّه العدالة والحماية.

في هذا المزمور نجد:

أولاً – مخلِّص المرنم (آيات 1–10)

ثانياً – أعداء المرنم (آيات 11–16)

ثالثاً – صلاة المرنم (آيات 17–28)

أولاً - مخلِّص المرنم

(آيات 1-10)

لم يكن داود إنسان الانتقام، لكنه كان يعلن الدينونة الإلهية على الطبيعة البشرية الفاسدة. ومفتاح الآيات العشر الأولى هو القول: «قُل لنفسي: خلاصك أنا» (آية 3ب).

1 - المرنم يطلب خلاص الله: (آيات 1–3).

يطالب داود إلهه أن يعمل معه ما يعمله عادة مع كل المؤمنين: «يا رب خلِّصني». وكأنه يقول: ليس بالضرورة يا رب أن تنقذني في هذه اللحظة، لكن أعطني الأمل أنك مخلِّصي.

في هذه الآيات الثلاث يدعو داود إلهه باسم «يهوه» ثماني مرات، ويهوه هو الخالق الحي الدائم الوجود الذي نجَّى وسينجي. وفيها يدعوه ثلاث مرات باسم «أدوناي» (السيد) بمعنى الحاكم العادل، لأنه يعلم أن في أرضنا سادة ولكن فوق العالي عالياً، والأعلى فوقهما يلاحظ (جا 5: 8).

ونحن نطلب من هذا الحاكم العادل السيد الذي يسود على الجميع أن يخلِّصنا. وفيها يدعوه مرتين باسم «إلوهيم» (الله) لأنه القادر الأبدي الذي يطمئن إليه، والذي نتَّجه إليه دائماً لأنه لا يغلق بابه في وجهنا أبداً.

ويصوِّر داود إلهه على أنه رجل حرب قادماً لمعونته، وقد تسلَّح ليحارب الأعداء دفاعاً عن عبده الضعيف، ولعله ذكر ترنيمة موسى: «الرب رجل الحرب.. يمينك يا رب معتزَّة بالقدرة. يمينك يا رب تحطم العدو» (خر 15: 3، 6). ولعله

ذكر رئيس جند الرب الذي جاء ليساعد يشوع لينتصر على أريحا (يش 5: 13-15). وقد طالب الرب أن يمسك مجنّاً (وهو الترس الكبير) وترساً، لأن المهاجمات ضده كثيرة، وعند الرب الدفاع الوحيد الناجع. والترس خشبة كبيرة مغلَّفة بالجلد، تُمسَك بسَيْر من ورائها، يتلقّى بها المحارب السهام الموجَّهة ضده، فبدل أن يصيب السهم داود يصيب الترس أو المجن لأنه يحتمي به. فالمرنم لا يطلب الخلاص في قاعة محكمة، بل في أرض معركة!

2 - خلاص الله موتٌ للشرير وحياةٌ للبار: (آيات 4-8).

لما كان الله هو المخلِّص الوحيد لشعبه يطالبه داود في هذه الآيات أن يجبر أعداءه على الانسحاب وإعلان الهزيمة، فيتحقَّق فيهم الوعد الإلهي: «حتى سَبْي الجبار يُسلَب، وغنيمة العاتي تُفلِت، وأنا أخاصم مخاصمك، وأُخلّص أولادك، وأطعم ظالميك لحم أنفسهم.. فيعلم كل بشر أني أنا الرب مخلِّصك» (إش 49: 25، 26). ويطلب أن يُستأصلوا كالعُصافة (وهي التبن والقش، رمز الضعف والضآلة) أمام الريح رمز القوة والقضاء، فينزلقون في ظلام أمام ملاك الرب الحال حول خائفيه وينجيهم، والذي يدحر الأعداء ويطاردهم ويُبعدهم، فينهزمون ويهربون ولا يعودون يهاجمون داود من جديد. وكل من يبتعد عن الله يحقِّر نفسه فيصير كالعصافة، زهيد القيمة، خفيف الوزن، لا استقرار له ولا سلام ولا هدوء، ويتم فيه القول: «تزلُّ أقدامهم. إن يوم هلاكهم قريب، والمهيَّآت لهم مسرعة» (تث 32: 35).

لقد هاجموا البريء و«بلا سبب حفروا لنفسي» (آية 7ب). وأخفى عدوُّه له شبكة يقتنصه بها ليهلكه، فقال: «لتنشب به الشبكة التي أخفاها، وفي التهلكة نفسها ليقع» (آية 8). ويتفق المرنم والنبي القائل: «هل يُجازَى عن خير بشرٍّ؟ لأنهم حفروا حفرة لنفسي. اذكر وقوفي أمامك لأتكلم عنهم بالخير، لأردَّ غضبك عنهم» (إر 18: 20). فإن «الذي يزرعه الإنسان إياه يحصد أيضاً» (غل 6: 7).

3 - المرنم يفرح بخلاص الله: «أما نفسي فتفرح بالرب وتبتهج بخلاصه. جميع عظامي تقول: يا رب، من مثلك المنقذ المسكين ممَّن هو أقوى منه، والفقير والبائس من سالبه؟» (آيتا 9، 10). كل صلاة مستجابة يجب أن تجعل قلوبنا تفيض بالشكر والفرح بخلاص الرب، الذي ليس مثله في رحمته وقوته وهو ينقذ المسكين من ظالمه. إن خلاص المسيح خبر طيب يسمِّن العظام (أم 15: 30) ويشجِّع المؤمن أن يتَّكل على الرب فيسمَن (أم 28: 25) وهو يقول: «مَن هو إلهٌ مثلك غافرٌ الإثم وصافحٌ عن الذنب لبقية ميراثه؟ لا يحفظ إلى الأبد غضبه، فإنه يُسرُّ بالرأفة» (مي 7: 18).

في بداية الحديث عن الله المخلِّص صرخ المظلوم، يطلب من الله أن يحاكم مخاصميه، ويقاتل مقاتليه، ويتبنَّى قضيته ويدافع عنه. وأنهى هذا الحديث بالشكر لله: «أما نفسي فتفرح بالرب وتبتهج بخلاصه». استمَع الله واستجاب وتبنَّى القضية، ودافع ونصَر، فله الشكر الممتزج بالفرح. وهذا ما سيحدث في نهاية العالم، إذ يقول الرائي: «سمعتُ صوتاً عظيماً من جَمْعٍ كثير في السماء، قائلاً: هللويا! الخلاص والمجد والكرامة والقدرة للرب إلهنا، لأن أحكامه حق وعادلة، إذ قد دان الزانية العظيمة التي أفسدت الأرض بزناها، وانتقم لدم عبيده من يدها. وقالوا ثانية: هللويا! ودخانها يصعد إلى أبد الآبدين» (رؤ 19: 1-3).

ثانياً - أعداء المرنم
(آيات 11-16)

1 - شهدوا عليه زوراً: «شهود زور يقومون، وعمّا لم أعلم يسألونني» (آية 11). اتَّهموا داود بجرائم لم يسمع عنها، وقالوا إنه يريد إيذاء الملك شاول، مع أنه زوج ابنته وأحد رجال القصر الأمناء (1صم 24: 9). فعلوا هذا مع أن الله أوصى: «لا تقبل خبراً كاذباً، ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم» (خر 23: 1). وقد كرر شيوخ اليهود الجريمة نفسها مع المسيح، فقد كانوا «يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه، فلم يجدوا. ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا، ولكن أخيراً تقدَّم شاهدا زور» (مت 26: 59، 60).

2 - جازوا محبته بالبغضة: (آيات 12-14).

لم يكن يتوقع مثل هذه المعاملة من الذين عمل معهم الخير، فقد جازوه عن الخير «ثَكَلاً» أي إذلالاً لنفسه، وهو الأمر الذي تكرر مع المسيح، فقال لليهود: «أعمالاً كثيرة حسنة أريتُكم من عند أبي، بسبب أي عملٍ منها ترجمونني؟» (يو 10: 32).. عندما كان أعداء المرنم يمرضون كان يتذلل أمام الله في الصوم والصلاة لأجلهم وهو يلبس المسوح (وهي ثياب الحزن)، ليشفي الرب مرضهم، ويتوبِّهم إليه. بكى معهم وعليهم وكأنه ينوح على أمه. ولكن صلاته رجعت إلى حضنه بالبركة عليه، دون أن تحمل لهم أي بركة، لأنهم كانوا يرفضون نِعَم الله. عندما يطلب المؤمن بركة لغير المؤمن، تستجيب السماء صلاته وتجهِّز البركة وترسلها. ولكن المرسَل إليه يرفض الهدية، ويكتب عليها: يُعاد إلى الراسل، مع الشكر (أو مع عدم الشكر!). وهكذا يحرم نفسه من البركة. لكن لا بد أن تحصل صلاة المؤمن على استجابة، وقد رجعت صلاة المرنم عليه بالبركة. أما أعداؤه فلم يستفيدوا منها لأن قلوبهم كانت مغلقة عن نعمة الله. وقد قال المسيح للتلاميذ: «إن كان البيت مستحقاً فليأتِ سلامكم عليه. ولكن إن لم يكن مستحقاً فليرجع سلامكم إليكم» (مت 10: 13). كم حزن داود على شاول المريض، وكم عزف له على العود، وكم صلي لأجله، ولكن شاول الشرير لم يتبارك بصلاة داود.. وقد ردَّ الرب سبي أيوب لما صلى من أجل أصحابه، ولم يستفِد أصحابه من استجابة صلاته كما استفاد هو!

3 - شمتوا به وشتموه: «ولكنهم في ظَلْعي (عَرَجي) فرحوا واجتمعوا. اجتمعوا عليَّ شاتمين ولم أعلم. مزقوا ولم يكفّوا. بين الفجار المُجّان لأجل كعكة حرّقوا عليَّ أسنانهم» (آيتا 15، 16). ربما هاجمه أحد أعدائه وأصابه، فوقع يظْلع (يعرج) فاجتمعوا حوله شامتين شاتمين، يمزّقونه ولا يكفّون، كأنهم ذئاب مفترسة. ثم أمسكوا سيرته، وضحكوا عليه، وجعلوه موضوع سخريتهم في حفلاتهم، واستأجروا «الفُجّار المُجّان» (وهم المهرّجون الماجنون الساخرون) ليسخروا منه، وأعطوهم كعكة كأجرٍ لهم! وكانت العادة أن الذي يقيم وليمة يستأجر هؤلاء البهلوانات ليُضحِكوا ضيوفه أثناء تناول طعامهم. ويقول داود إن أصدقاءه المحترمين، الذين صام وصلى لأجلهم، وقفوا وسط هؤلاء المهرِّجين يحرّقون عليه أسنانهم غضباً، يريدون أن يفترسوه.

ثالثاً - صلاة المرنم

(آيات 17-28)

1 - صلاة واثق: «يا رب إلى متى تنظر؟ استردَّ نفسي من تهلكاتهم، وحيدتي من الأشبال. أحمدك في الجماعة الكثيرة، في شعب عظيم أسبِّحك» (آيتا 17، 18). صام داود وصلى لأجل أعدائه، ولكنهم ردّوا الخير شراً. وبقي الرب وحده موضوع ثقته، لأنه دائماً أمين، لذلك عاتب ربَّه في محبة وأمل على تأخيره، وطالبه أن يستردَّ نفسه التي كادت

تضيع منه، وأن يحفظ حياته وحيدته من فم الأشبال المتوحِّشة المفترسة. ثم أعلن مقدَّماً أنه سيعلن تسبيحه وسط المـؤمنين على عظمة أمانة الرب.

2 - صلاة مستغيث: (آيات 19-21).

(أ) يستغيث من مبغضيه: «لا يشمت بي الذين هم أعدائي باطلاً، ولا يتغامز بالعين الذين يبغضونني بـلا سبب» (آية 19). لو أن داود قاسى لأنه أخطأ لوجَب أن يكون مزمورنا مزمور اعتراف، لكنه لم يخطئ في حق هـؤلاء، فطلب من الله أن ينصفه لكي لا يشمتوا به، ولا يتغامزوا عليه لأن «من يغمز بالعين يسبِّب حزناً» (أم 10: 10).

(ب) يستغيث من كلامهم الماكر: «لأنهم لا يتكلَّمون بالسلام، وعلى الهادئين في الأرض يتفكَّرون بكلام مكر. فغَروا عليَّ أفواههم. قالوا: هه! هه! قد رأت أعيُننا» (آيتا 20، 21).

إنهم يبغضون السلام، فكيف يتكلمون به؟ إنهم يسخرون منه ويقولون إنهم رأوا سقوطه! فعلهم شرير وكلامهم مكيـر، وسخريتهم مريرة. ويبقى الرب وحده ملجأ المرنم من هذا كله.

3- صلاة مظلوم: (آيات 22-26).

(أ) يظن المظلومُ أن اللهَ صامت: «قد رأيتَ يا رب. لا تسكت يا سيد. لا تبتعد عني» (آية 22). يُخيَّل إلى المظلوم أن الله يراقِب المظالم في صمت. ينظر وكأنه لا يرى. لكـن المرنم يعلم أنه حي وموجود، فلا بد أن يسـمع ويعمل ويقترب لينجي المظلوم، وليدين الظالم.

(ب) لكنه يعلم أنه قاضٍ عادل: «استيقِظ وانتبهِ إلى حكمي يا إلهي، وسيدي إلى دعواي. اقضِ لي حسب عدلك يا رب إلهي فلا يشمتوا بي» (آيتا 23، 24). لا بد أن الله العادل يكره الظلم، كما قال له حبقوق: «لِمَ تريني إثماً وتبصر (أنت) جوراً؟.. جمدت الشريعة، ولا يخرج الحكم بتَّةً، لأن الشرير يحيط بالصدِّيق، فلذلك يخرج الحكم معوجاً» (حب 1: 3، 4). فلا بد أن الله يستيقظ وينتبه ليقوم بالدفاع عن المظلوم، لأنه القاضي العادل.

(ج) يعلم أنه لا بد سينجيه: «لا يقولوا في قلوبهم: هه! شهوتنا. لا يقولوا: قد ابتلعناه. ليخزَ وليخجل معاً الفَرِحون بمصيبتي. ليلبس الخزي والخجل المتعظمون عليَّ» (آيتا 25، 26). لن يترك الله المرنم في فم الأشرار لينفِّـذوا فيه شهواتهم الشريرة، ولن يسمح لهم أن يبتلعوه من أرض الأحياء فيُـبيدون ذكره، ولن يسمح لهم أن يصيبوه بسوء ثـم يفرحون في مصيبته، ولا بد سيردُّ خزيهم وخجلهم عليهم لأنهم متكبِّرون! هذا نصيبهم في الأرض، ونصيبهم في الأبدية.

4 - صلاة فرحان: «ليهتف ويفرح المبتغون حقي، وليقولوا دائماً: ليتعظم الرب المسرور بسلامة عبده. ولساني يلهج بعدلك. اليوم كله بحمدك» (آيتا 27، 28). في هاتين الآيتين يذكر المرنم ثلاثةً يفرحون بنجاته واستجابة صلاته: أصحاب الحق الذين تبنُّوا قضيته بتكليفٍ من الله، ثم الرب المسرور بسلامة عبده، ثم داود نفسه. طلب المـرنم مـن الله أن يفـرِّح مؤيِّديه ومحبّيه معه بالعدالة والنجاة، حتى لو كانت مشاعرهم نحوه مجرد أمنيات بغير أفعال. وكل من يرفع صلاته واثقاً لا بد أن ينتهي به الحال فرحاً. لجأ داود إلى الله لأنه مظلوم، فتدخَّل الله لإنقاذه.

بدأ مزمورنا بالشكوى «خاصِم مخاصميَّ.. إلى متى تنظر؟» وانتهى بالهتاف: «لساني يلهج بعدلك!». فليعطنا الرب أن نرفع عيوننا له في كل ضيق، فنختبر عدالته العظيمة.